

تاريخ الإرسال (2017-04-22). تاريخ قبول النشر (2017-06-11)

أ. د. نبيل خالد أبو علي¹

أ. عبد الفتاح داود كالك^{*1}

¹ قسم الأدب والنقد - كلية الآداب - الجامعة الإسلامية بغزة - فلسطين

*البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: kak552@hotmail.com

الحقول الدلالية في الحماسة الشجرية "دراسة أسلوبية"

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن دلالات الألفاظ في الحماسة الشجرية، من خلال استقراء المعجم الشعري للشعراء، الذي مثل حقولاً دلالية فياضة، تعج بمختلف الدلالات النابعة من الخطاب الشعري المنبثق من تجارب شعرية متعددة، وقد كان المنهج الأسلوبية هو المنهج المتبع في الدراسة كونه أحد أهم المناهج المستعملة في مقارنة النصوص الشعرية، لما يوفره من إمكانات تتبع الألفاظ واستكشاف دلالاتها، وربطها مع بعضها بعضاً، وقد تناول البحث أبرز الحقول الدلالية في الحماسة الشجرية، لما لها من حضور مكثف في مختلف التجارب الشعرية، مما شكّل سمة أسلوبية بارزة جديرة بالبحث والدراسة. ومن أهم الحقول الدلالية التي سيتناولها البحث في الحماسة الشجرية، حقل الطبيعة وحقل المرأة، وحقل الحرب. مسبوقة بمقدمة، ومختومة بالخاتمة، وأهم النتائج والتوصيات.

كلمات مفتاحية: حقول ، دلالة ، الحماسة ، الشجرية ، أسلوبية

The fields concept in the Shajaria Zealousy "Stylistic study"

Abstract

This research seeks to reveal the semantics of words in 'the Al- Shajaria Zealousy ', through the extrapolation of the poetical lexicon of poets, which represented semantic fields, full of different connotations that stem from the poetic discourse and emanate from multiple poetic experiences. The stylistic approach is to be adopted as a theoretical framework of the study, since it is one of the most prominent approaches used in comparing between poetic texts. This is due to its capabilities of finding lexemes, highlighting their meanings and joining between them. The study tackled one of the most important semantic fields in 'the Al- Shajaria Zealousy ' due to its effective presence in various poetic experiences. The most important semantic fields to be tackled in this research are; the field of nature, the field of women's words, and the field of words of war. These will be preceded by an introduction, and end up with the most important findings and recommendations.

Keywords: fields, semantics, zeal, 'the Al- Shajaria Zealousy ', stylistic

المقدمة:

تعد الحقول الدلالية أحد أهم النظريات الأسلوبية الحديثة المستعملة في مقارنة النصوص واستجلاء دلالاتها فقد بات علينا دراسة النصوص القديمة بمناهج حديثة كالأسلوبية في تحليل الأعمال والخطابات الشعرية ، والوقوف على المعجم الشعري لشاعر ما أو حقبة محددة ، للوصول إلى نتائج جديدة لم تكن لتظهر بالمناهج القديمة .

مشكلة البحث : تتمثل بدراسة الألفاظ التي كونت حقولاً دلالية من خلال النصوص الشعرية ، ومحاولة الوقوف على الأسباب التي تربط هذه الألفاظ بعضها ببعض مكونة حقلاً دلالياً معيناً .

أهمية البحث : تأتي أهمية هذا البحث من أهمية نظرية الحقول الدلالية ، وكيفية تعالق الألفاظ مع بعضها بعضاً، وخاصة بالتراذف و الصفات .

أهداف البحث : يهدف البحث إلى دراسة الحقول الدلالية في الحماسة الشجرية ، كظاهرة أسلوبية لها حضورها وتجلياتها في النصوص الشعرية ، وتقسيم هذه الحقول كل حقل على حدة .

منهج البحث : المنهج الذي يقوم عليه هذا البحث هو المنهج الأسلوبية ، حيث يعتمد هذا البحث إلى استقراء النصوص الشعرية من أجل الوقوف على الألفاظ المتشاكلية فيما بينها مكونة حقلاً دلالياً ، ومن ثم شرحها وتفسيرها ، وبيان سبب مجيء هذه الألفاظ ، ومعانيها ودلالاتها من خلال الغرض الشعري للنص ، والتجربة الشعرية المسيطرة على الشاعر .

حدود البحث : الحماسة الشجرية هي المصدر الوحيد لهذه الدراسة ، ومن الصعب دراسة كل الحقول الدلالية الواردة في الحماسة الشجرية ، لذا اقتصر البحث على دراسة ثلاثة حقول دلالية كبيرة هي : حقل الطبيعة ، وينقسم هذا الحقل إلى قسمين هما : الطبيعة المتحركة والطبيعة الصامتة . والحقل الثاني : حقل ألفاظ الحرب . والحقل الثالث : حقل ألفاظ المرأة ، وتم فيه الحديث من خلال محورين هما : المحور الأول : الموت والفناء وما دل عليه من أطلال وهجر ورحيل وما يتعلق بهما ، والمحور الثاني استمرار الحياة والنوع ، من خلال الصور التي رسمها الشعراء للمستقبل الزاهي بحضور المرأة المحبوبة ، واستشرافه على أحسن ما يكون .

تعدُّ كتب الحماسات الشعرية مصدراً هاماً من مصادر الشعر العربي القديم ، لما حوته من أشعار ما كان ليكتب لها الوجود لولا هذه المصنفات . والحماسة لغة : الشجاعة ، وهي مأخوذة من الاشتداد في قولهم حمس الأمر والشر ، أي اشتد ، وتحامس القوم تحامساً وحماساً أي تشادوا واقتتلوا ، والحماسة أيضاً المنع والمحاربة ، والتحمسُ التشدد⁽¹⁾.

الحماسة اصطلاحاً : كتاب يضم " مجموعة من القطع والقصائد لعدد من الشعراء يختارها جامعها على أساس قيمتها الأدبية في نظره ، ويصنفها بحسب الموضوع الأدبي الذي تنتمي إليه ، أو الفكرة التي تعبر عنها ، من غير أن يصدر حكماً عليها أو ينتقدها " ⁽²⁾ والحماسة اسم مجازي على سبيل تسمية الكل باسم الجزء ، أو أطلق عليها تغليبا من قبيل تغليب الجزء على الكل ، ولعل سبب تسميتها بهذا الاسم أن باب الحماسة هو أول الأبواب .

(1) ينظر ، ابن منظور ، لسان العرب (ج3/323).

(2) التتجي ، المعجم المفصل في الأدب (ج1/381).

كان أبو تمام (231هـ) أول مَنْ صَنَّفَ في هذا اللون من المختارات الشعرية ، حيث تبعه الكثير من المصنفين في هذا اللون مثل البحتري (284هـ) ، وأحمد بن فارس(395هـ) صاحب الحماسة المحدثه ، وحماسة أبي العلاء المعري (449هـ) ، وحماسة ابن الشجري(542هـ) (3) التي هي صلب البحث ، وغيرها الكثير من كتب الحماسات (4).

الحماسة الشجرية – الوصف والمنهج

تعدُّ الحماسة الشجرية من أهم الحماسات التي وصلتنا حيث تشكل حلقة ذهبية في سلسلة المختارات الشعرية بل الحماسات منها ، وهي مجموعة قصائد ومقطوعات وأشعار اختارها هبة الله شأن أبي تمام في مختاراته لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي (5).

والحماسة الشجرية من حيث العدد تبلغ تسعمائة وأربعاً وأربعين حماسية مقسمة على تسعة أبواب هي : باب الشدة والشجاعة ، وباب اللوم والعتاب ، وباب المراثي ، وباب المديح ، وباب الهجاء، وباب الأدب وباب النسيب ، وباب الصفات والتشبيهات ، وباب الملح.

اتبع ابن الشجري في تصنيف حماسته منهجاً مشابهاً لحماسة أبي تمام ، وحماسة البحتري ، واقتدى بهما في كثير من أبواب حماسته ، موافقاً حيناً ومخالفاً حيناً آخر ، ومتقرباً في أحيان كثيرة ، "حيث اتبع سبل كتب الحماسات السابقة له في سماتها ومناهجها ، مع اختلاف في تسمية بعض الأبواب أو من التفصيلات المجزأة لكثير من فنون الشعر في أبواب أو فصول خاصة بها" (6). ومن الطبيعي أن يطلع ابن الشجري على أول نماذج الحماسات وهما حماسة أبي تمام ، وحماسة البحتري فجمع في حماسته أفضل ما جاء فيهما ، إضافة لما زاده عليهما وتقرده به .

كما اعتمد ابن الشجري في منهجه التقني والتفريع لبعض أبواب حماسته كما جاء في باب الصفات والتشبيهات . ويغلب على حماسيات ابن الشجري صفة المقطعات صغيرة الحجم ، التي كثيراً ما تكون بيتاً واحداً ، يمثل حماسية منفردة في مقابل أبيات كثيرة.

كما اتسم منهج ابن الشجري بروح العالم اللغوي ، الذي يميل إلى شرح وتفسير معاني المفردات ، أو أبيات كاملة في غير موضع من كتابه ، إضافة لاستحسانه بعض الأبيات ، كما أن كتابه يضم بين دفتيه عددا لا بأس به من أشعار علماء النحو واللغة .

(3) هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن أبي الحسن بن عبد الأمين بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، المعروف بابن الشجري، ولد ببغداد عام خمسين وأربعمئة للهجرة ، ولقب بابن الشجري نسبة إلى بيت الشجري من جهة أمه ، وقيل نسبة إلى أحد أجداده واسمه شجرة ، نشأ ابن الشجري في بيت مشهود له بالدين ، والعلم فهو سليل أسرة شريفة ، يمتد نسبها إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فهو أحد علماء آل البيت رضوان الله عليهم كان ذكي الفؤاد ، فصيح اللسان ، حسن الكلام ، حلو الألفاظ ، فصيحاً جيد البيان والتفهيم ، وهو أحد أئمة الشيعة ومن كبار علمائهم ، من مصنفاته ، كتاب الأمالي وهو أكبر تأليفه ، وشرح للمع لابن جني ، وشرح التصريف الملوكي ، وكتاب الانتصار ، وديوان مختارات العرب ، والحماسة الشجرية ، وغير ذلك من المصنفات. ينظر، الزركلي، الأعلام (ج 74/8). وابن خلكان، وفيات الأعيان (ج 45/6). والحموي، معجم الأدباء(ج 1/2775). و السيوطي ، بغية الوعاة (ج 2/324).

(4) ينظر ، العبادلة ، قراءات في المكتبة العربية (145).

(5) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية .

(6) أحمد ، القيم الأدبية والشعرية في حماسة ابن الشجري (ص 63).

ويأتي هذا البحث الموسوم بالحقول الدلالية في الحماسة الشجرية لاستجلاء جمال النصوص التي اختارها ابن الشجري في حماسته ، عن طريق المنهج الأسلوبي ، الذي يتتبع المعجم الشعري للشعراء ، وما تكونه من حقول دلالية ، لها بالغ الأثر في إثراء الدلالة . فقد اهتمت الدراسات الأسلوبية اهتماماً كبيراً ، بالمعجم الشعري للشاعر، كونه نتاجاً حياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمختلف الظروف التي تحيط به ، فاتجه الاهتمام إلى دراسة المعجم الشعري للوقوف على مدى امتلاك الشاعر ناصية اللغة في تكوين خطابه الشعري . وكلما زاد الرصيد اللفظي للشاعر كان أقدر على التعبير عن الشحنات المتموجة في عمق العاطفة ، وهنا يبرز المستوى الدلالي المنبثق عن هذه الألفاظ والمعاني المنتشرة في الأنسجة النصية المحملة بالدلالات لذلك اتجهت الدراسات الأسلوبية إلى رصد معالم هذه المعاجم الشعرية للشعراء لاستجلاء دلالاتها .

ويمكن تعريف الأسلوبية بأنها المنهج التحليلي العلمي الذي يهتم بدراسة الأعمال الأدبية مستخدماً أفكار علم اللغة الحديث في إبراز الخصائص والسمات الأسلوبية المميزة لعمل أدبي أو أديب أو حتى حقبة زمنية (7). أو هي " فرع من اللسانيات الحديثة مخصص للتحليلات التفصيلية للأساليب الأدبية أو للاختيارات اللغوية التي يقوم بها المتحدثون و الكتاب في السياقات - البيئات - الأدبية وغير الأدبية " (8). ومع انتشار الأسلوبية مع بدايات القرن العشرين لم يكتف الدارسون الأسلوبيون بأدوات البلاغة العربية بل تطلّعو إلى الإفادة من بعض أدوات بعض العلوم العربية كالأصوات والصرف والدلالة والتراكيب ، وكذلك استلهموا منجزات علمي النفس والاجتماع ، وانتفعوا بنتائج علم النفس اللغوي ، وعلم اللغة الاجتماعي الأمر الذي أسهم في بلورة رؤية عربية ناضجة للمنهج الأسلوبي (9) .

ووفق هذه الرؤية سعت الأسلوبية إلى إيجاد التكامل بين فروع اللغة الواحدة ، فبعد أن كان الاعتماد الأول والأخير على البلاغة، اهتمت بعدة مستويات أخرى على قدر كبير من الأهمية، كالتراكيب ، والأصوات والصرف ، وحتى الإيقاع الموسيقي للنصوص الأدبية ، كما أنها تجاوزت تلك الوحدة فسعت إلى إنشاء روابط جديدة بين العلوم الأخرى وخاصة علمي النفس والاجتماع . "فالأسلوبية هي دراسة الأسلوب في مختلف تجلياته الصوتية والمقطعية والدلالية والتركييبية والتداولية . ومن ثم ، فهي تهتم باستكشاف خصائص الأسلوب الأدبي وغير الأدبي ، مع جرد مواصفاته المتميزة ، وتحديد مميزاته الفردية ، واستخلاص مقوماته الفنية والجمالية ، وتبيان آثار كل ذلك في المتلقي أو القارئ ذهنياً ووجدانياً وحركياً ، ويعني هذا كله أن الأسلوبية تهتم بالأجناس الأدبية ، وصيغ تأليف النصوص ، والتركيز على الأساليب اللغوية الخاصة لدى مبدع ما ، وتدرس أيضاً أنواع الأساليب التي يستثمرها الكاتب" (10).

ويمثل المعجم الشعري مفتاح الولوج للأبنية النصية المراد دراستها أسلوبياً ، لأنه يُعين على تحديد دلالات الخطابات الأدبية ، فتحديد طبيعة المعجم ومكوناته يحيلنا إلى البنى اللغوية المسيطرة في النصوص ، التي مثلت نقاط ارتكاز اتكأ عليها الشاعر في فيض دلالاته ، فالبنى اللغوية المسيطرة على النص تمثل نقاطاً مضيئة تُبرز معالم الجمال النصي وقدرتها الإيحائية . ويمكن تعريف المعجم الشعري بأنه "ذلك الرصيد اللفظي الذي يكون الخطاب الشعري لدى شاعر من الشعراء ؛ والذي يتسم بالخصوصية أو الذاتية الناتجة عن قدرة المبدع في بث الطاقات الجديدة من هذه الألفاظ أو تلك مما يحويه خطابه الشعري" (11).

(7) ينظر ، أبو علي ، البحث الأدبي واللغوي (ص71).

(8) أبو العدوس ، الأسلوبية الرؤية والتطبيق (ص35).

(9) أبو علي ، البحث الأدبي واللغوي (ص69).

(10) حمداوي ، اتجاهات الأسلوبية (ص 8 - 9).

(11) الجيار ، شعر إبراهيم ناجي دراسة أسلوبية بنائية (ص183).

والمعجم الشعري يمثل معمار النص ويمنحه تشكيله الهندسي المنبثق من المخزون اللغوي الكامن في أعماق حافظه الشاعر وبديته، "الشعر بناء، والكلمات ليست إلا لبنات هذا البناء. والشاعر المجيد بمثابة المهندس البارح، يكون حظه من البراعة بمقدار استغلاله كل الإمكانيات في تشييد بنائه، وتسخير كل ما يراه مناسباً لتأسيسه وتأمين تماسكه ويقدر ما يبرع الشاعر في تعامله مع الكلمات، يكون حظه من الفن والشاعرية ويُحكم له أو عليه على هذا الأساس"⁽¹²⁾.

ويشكل المعجم الشعري أحد أهم الخواص والسمات الأسلوبية التي تميز شاعراً ما عن غيره من الشعراء، أو شعراء حقبة معينة خضعوا لنفس المعايير الثقافية السائدة في حقبتهم، "ويتسم المعجم الشعري في كل عصر بالانتماء لهذا العصر؛ دون غيره وذلك لقابلية المعجم بصفة عامة للتطوير حيث ينتابه الكثير من التغيير، وإن لم يكن تغييراً شاملاً يجعله متميزاً عن عصر سابق، وذلك لأنه محكوم بالذاتية أو الخصوصية التي يتسم بها المبدع، أو جيل من المبدعين في فترة من الفترات فلكل عصر معجمه"⁽¹³⁾. والمعجم اللغوي أو المخزون اللغوي لدى الشاعر يمكن اعتباره سلوكاً لغوياً يستخدمه الشاعر في التعبير عن طاقاته الإبداعية في حال نسج النصوص "فالسلك اللغوي إنما هو فعالية معتمدة على الثقافة"⁽¹⁴⁾. وكما يميز المعجم الشعري صاحبه وتفرده بين المبدعين الآخرين، يميز أيضاً النص ويحدد موقعه بين النصوص الأخرى "فما المفردات إلا الخلايا الحية التي يتحكم بها المنشئ في تخليقها وتنشيط تفاعلاتها على نحو يتحقق به للنص كينونته المتميزة في سياق النصوص وللمنشئ تفرده بين المنشئين"⁽¹⁵⁾.

فالثقافة تمنح الشاعر كما هائلاً من المخزون اللغوي الذي يتم استدعاؤه وقت الحاجة وحسب العاطفة المسيطرة عليه في حال إبداعه النص وإخراجه إلى الوجود، فالعاطفة المسيطرة هي العامل الأساس في استدعاء الألفاظ المناسبة، فإذا كانت العاطفة رثاء كانت الألفاظ حزينة تشيع جواً من الألم في ثنايا الأبيات، وإذا كانت العاطفة رومانسية وجدنا حضوراً مكثفاً للألفاظ الدالة على الابتهاج والسرور والفرح والسعادة، وهكذا.

فالشاعر يمنح الحياة للألفاظ داخل نصه ويكتف دلالاتها وحضورها، ويفجر الطاقات الكامنة للغة باستخراج أقصى طاقاتها التعبيرية وذلك عن "طريق العاطفة التي تساعده في انتقاء الألفاظ المناسبة لتجربته وتساعدته أيضاً في إخراج اللفظة من مكنها التراثي المتعارف عليه إلى معنى جديد مليء بالإبهاء والرمزية"⁽¹⁶⁾.

إن الاستعمال غير العادي للغة هو ما يميز الأديب أو الشاعر عن غيره فبروز العبقرية كامن في "اختراع الكلمة"⁽¹⁷⁾ وإضفاء دلالات جديدة إليها تكون متماهية مع عنف التجربة الشعورية وعمقها فمهمة الشاعر "هي تعرية اللغة وإبراز العناصر الجمالية حتى في المناطق المحرمة من اللغة التي درج الناس على تأثيم من يتعرض لها"⁽¹⁸⁾. فشعرية كلمات النص الشعري بوصفها فضاء تتقاطع فيه عدة شفرات في علاقة متبادلة تُخرج العبارة عن حيادها إلى أشكال وأنماط مغايرة للمألوف، نائية بنفسها عن الاستعمال العادي، لا يمكن معها إحالة المدلول الشعري إلى سنن محددة تخضع لها الفاعلية الدلالية، بل إن لكل لفظ في المعجم الشعري

(12) حسنين، المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم (ص 29).

(13) الجيار، شعر إبراهيم ناجي دراسة أسلوبية بنائية (ص 185).

(14) لاينز، اللغة والمعنى والسياق (ص 240).

(15) مصلوح، في النص الأدبي (ص 85).

(16) الجيار، شعر إبراهيم ناجي دراسة أسلوبية بنائية (ص 184).

(17) كوين، بناء لغة الشعر (ص 48).

(18) فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص 267).

دلالة جديدة ومعنى مغايرا وروحا ولونا ووقعا مغايرا للمألوف⁽¹⁹⁾. فالأهمية تكمن في استحداث طرائق التعبير عن الأحاسيس المختلفة ، عن طريق كلمات تلبس أثواباً جديدة ، وتطرح أثوابها القديمة التي أبلها الاستعمال اليومي . فكسر رتابة اللغة لتعزيز الدلالات الجديدة هو ما يمنح معجم الشاعر الشعري، الجمال وهو أحد أسباب تطوره ونموه فيكاد يجمع "النقاد ... على أن أهم العناصر الخاصة بالقول الجمالي هو أنه يكسر نظام الإمكانيات اللغوية الذي يهدف إلى زيادة عدد الدلالات الممكنة"⁽²⁰⁾.

إن استعمال الألفاظ بشكل معين وبإيحاءات جديدة غير معهودة تمثل خاصية أسلوبية يتميز بها الشاعر عن غيره من الشعراء ، حيث يمكننا من خلال هذه الخاصية إثبات نسب النصوص المجهولة أو المشكوك في نسبتها . "فإذا ما وجدنا نصا بين أيدينا ولم نستطع تحديد هويته بادئ الأمر فإن مرشدنا إلى تلك الهوية هو المعجم بناء على التسليم بأن لكل خطاب معجمه الخاص به ، إذ للشعر الصوفي معجمه ، وللمدحي معجمه ، وللخمرى معجمه . فالمعجم لهذا وسيلة للتمييز بين أنواع الخطاب وبين لغات الشعراء والعصور ، ولكن هذا المعجم يكون منتقى من كلمات يرى الدارس أنها هي مفاتيح النص أو محاوره التي تدور عليها"⁽²¹⁾. هذه المظاهر أو السمات الأسلوبية دليل على شعرية النص المتجلية "في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة ، وليست مجرد بديل عن الشيء المسمى ولا كانبثاق للانفعال ، وتتجلى في كون الكلمات وتركيبها ودلالاتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست سوى أمارات مختلفة عن الواقع ، لها وزنها وقيمتها الخاصة"⁽²²⁾. "فالمعجم إذن هو لحمة أي نص كان ، ويحتل مكانا مركزيا في أي خطاب ، ولذلك اهتمت به الدراسات اللغوية قديما وحديثا وجعلته مركز الدراسات التركيبية والدلالية"⁽²³⁾.

لقد اهتمت الأسلوبية بدراسة هذه الألفاظ دلالياً ، بوصفها ممثلاً حقيقياً لجوهر المعنى ؛ فاختيار المبدع ألفاظه يتم في ضوء الإدراك التام لطبيعة ودور الألفاظ ، وتأثير ذلك على الفكرة المسيطرة عليه ، كما يتم في ضوء ذلك تجاوز ألفاظ بعينها تستدعيها هذه المجاورة ، أو تستدعيها طبيعة الفكرة⁽²⁴⁾.

وللمعجم الشعري دور كبير في تهيئة ذهن المتلقي لاستقبال الخطابات الأدبية المختلفة وتكوين صورة واضحة للأديب صاحب النص فالمعجم الشعري "واحداً من الإمكانيات التي تساعد المتلقي على فهم عالم الشاعر ، وتحديد ثقافته وأيديولوجيته ورؤيته لما حوله ، ويتجلى هذا في قدرة المبدع على تشعير الكلمات وشحنها بطاقات جديدة قادرة على انعكاس عالمه لدى القارئ"⁽²⁵⁾. "والمعاني مطروحة في الطريق"⁽²⁶⁾ والعبرة بتشعير الكلمات وإضافة طابع الشعرية إليها من خلال انتقائها ، وإضفاء طابع الحيوية إليها ، وتفجير طاقاتها التعبيرية والإبداعية من خلال شحنها بالدلالات غير المسبوقة ، عن طريق الاستعمال غير المسبوق ، الذي يتم فيه كسر حواجز اللغة بالخروج عن الاستعمال اليومي للألفاظ إلى استعمالات جديدة ، تمثل فيضا من الدلالات الجديدة غير المسبوقة واللامتناهية .

(19) ينظر ، كريستيفا ، علم النص (ص78).

(20) فضل ، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص251).

(21) مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص (ص58).

(22) ياكسون ، قضايا الشعرية (ص19).

(23) مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص (ص62).

(24) ينظر ، محمد ، البلاغة والأسلوبية (ص207).

(25) الجيار ، شعر إبراهيم ناجي دراسة أسلوبية بنائية (ص187).

(26) الجاحظ ، الحيوان (ج3/131).

فليس هناك كلمات أو ألفاظ تصلح للشعر أو لا تصلح له وإنما العبرة والأساس في ذلك "تشعير الكلمات المستحدثة"⁽²⁷⁾. فمادة الشعر "هي اللغة التي قد تكون ذات كلمات نادرة ومجازات . كما يحق للشاعر أيضا أن يجري على الكلمات التحويلات اللغوية المتنوعة"⁽²⁸⁾. في محاولة لإبراز دلالة الكلمات وأهميتها والتفرد في ذلك . إن " العمل الإبداعي ، بعد أن يتم تصوير المعنى في الذهن ، ينحصر في اكتشاف الألفاظ التي تلائمها ملائمة جيدة ، ومهما كانت طبيعة الموضوع فهو يصبح رهين اللغة ، ورهين كل إسهام في استثمار الفكر بالكلمات"⁽²⁹⁾.

إن المعجم الشعري للأديب يمثل خلاصة فكر تطور مع مرور الزمان صفاته الأحداث المحيطة بالأديب حسب بيئته التي يعيش فيها ، فأبرز هذا المعجم الحقول الدلالية التي استعملها الشاعر الأديب في صوغ خطابه الأدبي ، وهو ما جعل عجلة الأسلوبية تتجه اتجاهها حيثما نحو هذه الحقول ودراسها لاستجلاء دلالاتها فقد اهتمت الدراسات الأسلوبية اهتماما كبيرا بالمستوى الدلالي كونه أحد أهم المستويات التي تفتح مغاليق النص ، وتعطي صورة واضحة للمتلقي عن المبدع ونصه ، وقد اهتمت الدراسات الأسلوبية بهذا المستوى من خلال نظرتها العميقة للألفاظ التي تمثل حقولا دلالية استعملها الأدباء في خطاباتهم بكامل وعيهم، لتأدية أدوار معينة داخل النصوص حسب ما يقتضيه السياق . فليسباق دور كبير في التحليل الدلالي للعمل الأدبي نظرا لدوره في تعيين وتحديد قيمة الألفاظ ، ففي كل استعمال يكتسب اللفظ معنى جديدا محددا ومؤقتا⁽³⁰⁾.

ويمكن تعريف الحقول الدلالية بأنها "مجموعة من مفردات اللغة تربطها علاقة دلالية وتتشرك جميعا في التعبير عن معنى عام يعد قاسما مشتركا بينها جميعا مثل الكلمات الدالة على الألوان والكلمات الدالة على الآلات الزراعية والكلمات الدالة على النباتات ، أو الكلمات الدالة على الأفكار"⁽³¹⁾.

وقد كان للعلماء العرب القدماء دور كبير في هذا المضمار حيث تنبهوا لأهمية هذه الحقول وإن كانوا لم يسموها باسمها إلا أنهم أسهموا إسهامات كبيرة في الممارسة العملية لهذه النظرية ، وخطوا خطوات واسعة في هذا المجال ، وخاصة في التطبيق والتصنيف الذي قاموا به من خلال مؤلفاتهم " فقد عرف علماء اللغة القدامى الحقول الدلالية انطلاقاً من اللغة نفسها إذ تضمنت تصنيفاً شاملاً لألفاظها"⁽³²⁾.

ويعد كتاب المخصص لابن سيدة (485هـ) من أهم الكتب التي وصلتنا في موضوع الحقول الدلالية فهو " أشمل وأضخم معجم متوج لمرحلة الرسائل، ومعاجم الموضوعات التي سبقته، وهو مرتب بحسب المعاني، متضمن الحقول الدلالية في أرقى مناهجها وتصنيفاتها، وله أهمية خاصة لوفرة مادته، وإحكام بنائه ونضج منهجه ووحدته"⁽³³⁾.

مثل هذا المعجم المحكم البناء ، المرتب حسب المعاني ، قمة النضج الفكري اللغوي عند العرب القدماء⁽³⁴⁾، وهذا العمل لم يكن ليكون على هذا الوجه من التمام والكمال ، لولا جهود سابقة عليه لعلماء أبدعوا في هذا المضمار ، فألفوا رسائل تضمنت مواضيع

(27) فضل ، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص251).

(28) أرسطو ، فن الشعر (ص215).

(29) ابن الشيخ ، الشعرية العربية (ص161).

(30) ينظر ، اللغة والمعنى والسياق (ص 215).

(31) حيدر ، علم الدلالة (ص174).

(32) عزوز ، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية (ص22).

(33) المرجع السابق ، ص31.

(34) نصار ، المعجم العربي نشأته وتطوره (ج1/296).

مفردة مثل غريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (224هـ)، وكتاب الألفاظ لابن السكيت (224هـ)، و الثعالبي(ت429هـ)، في فقه اللغة وأسرار العربية وغيرها من المصنفات الأخرى .
وتقوم هذه النظرية على أنه لفهم معنى كلمة معينة يتوجب فهم مجموعة الكلمات الأخرى المتصلة دلالياً بالكلمة المرادة ويهدف هذا التحليل الدلالي للحقول المراد دراستها واستجلاء معانيها ، والوقوف على الأهداف التي تحققها هذه اللفظة داخل المعمار النصي إلى جمع الألفاظ التي تخص حقلاً معيناً ، والكشف عن صلة هذه الألفاظ بعضها ببعض وصلاتها بالمصطلح العام⁽³⁵⁾.
ومفاد هذه النظرية أن "الكلمة تتحد دلالياً ببحثها مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة دلالية واحدة"⁽³⁶⁾.
أي أنه يتم رصد "تداعي دلالة بعض الكلمات التي لا ينتمي بعضها إلى بعض اشتقاقياً للتعبير عن مجال واحد من المسميات أو المفاهيم بحيث يتشكل (حقل) ، أو دائرة من الكلمات تغطي مجالاً لغوياً واحداً يتصل فيه معنى الكلمة المعينة بمعنى كلمة أو كلمات أخرى قريبة منها في الدلالة على ذلك المعنى مما يساعد على تحديد معنى الكلمة من خلال معرفة الحقل الذي تنتمي إليه"⁽³⁷⁾.

وتفيد معرفة الحقول الدلالية في تحديد وظيفة الألفاظ وقيمتها في أداء المعنى ، كما أن الاستعانة بالحقول الدلالية يسلط الضوء على غايات النص ، ويُبرز ملامح شخصية المبدع ، والعوامل التي شكلت خطابه وأثرت فيه ، من عوامل ثقافية وسياسية ، واجتماعية ، واقتصادية وغيرها من العوامل التي تكون ذات أثر في نص المبدع .
وتتكون هذه النظرية من عنصرين أساسيين هما : تقسيم الألفاظ إلى مجموعات دلالية ، وتحديد دلالة اللفظة داخل كل مجموعة ببحثها مع أقرب الألفاظ إليها⁽³⁸⁾.

والباحث في هذا المجال لا يعنيه أهمية الجذور الثلاثية أو الرباعية للألفاظ ، بقدر ما يعنيه العلاقات القائمة بينها ومحاولة تصنيفها بطريقة تبرز تلك العلاقات ، لما تؤديه هذه الألفاظ من دلالات مشتركة⁽³⁹⁾.

إن الدراسة الناجمة عن المعجم الشعري لشاعر ما يعين القارئ على تصور رؤية الشاعر ، والعالم الذي يعيشه والثقافة السائدة فيه ، وفهم توجهاته وأرائه ومواقفه ، فهو من أبرز الظواهر الأسلوبية التي تميز شاعراً عن آخر . "فالحقل الدلالي هو الشكل النهائي لما يتلفظ به الشاعر ، ويصبح بذلك لكل شاعر حقله الدلالي ، أو خطاب معجمه الخاص به وبذلك يصبح الحقل الدلالي وسيلة للتفريق بين أنواع الخطاب ؛ لأن ذلك يعد سرا من أسرار أسلوبية عميقة في النص الشعري ، نستطيع بها الاقتراب من دلالة الخطاب الجزئية والكلية"⁽⁴⁰⁾.

ويسعى هذا الفصل إلى استقراء المعجم الشعري لشعراء الحماسة الشجرية ، بهدف تحديد المكونات الدلالية الأساسية للنصوص الشعرية ، حسب الألفاظ التي توالى ظهورها واستعملها الشعراء في أشعارهم بكثرة ، مما أدى إلى الثراء الدلالي للنصوص ، وتتنوع كبير في الحقول الدلالية . وهو ما شكل سمة أسلوبية بارزة وظاهرة جديرة بالدراسة .

(35) ينظر ، عمر ، علم الدلالة (ص80).

(36) المسدي ، الأسلوبية والأسلوب (ص154).

(37) نهر ، الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها (ص269).

(38) ينظر ، محمد ، في علم الدلالة (ص48).

(39) خليل ، مدخل إلى علم اللغة (ص221).

(40) الرشود ، شعر المرقشيين دراسة أسلوبية (ص136).

وتقوم هذه الدراسة على تقفي أثر المفردات والألفاظ المتواترة والمكررة في النصوص الشعرية التي تتشاكل فيما بينها لتشكل حقلاً دلالياً معيناً، يختلف عن غيره من الحقول باختلاف مفرداته .

• المبحث الأول : حقل الطبيعة

لا شك أن الطبيعة التي أحاطت بشعراء الحماسة الشجرية كانت ذات أثر عظيم في تشكيل خطاباتهم الشعرية ، هذه الطبيعة على اختلاف مظاهرها وأصنافها ، سواء كانت صحراء مقلحة ، أو روضات ذات خضرة ، كان لها حضور مكثف داخل نصوص الحماسة الشجرية ، فاستعان الشعراء بمفردات الطبيعة في توصيل دلالاتهم المكثفة عبر هذه المفردات ، وقد مثلت الطبيعة للشعراء مصدراً خصبا لخيالهم ، فاستمدوا منها أفكارهم ، واستلهموا منها ما يعينهم على تشكيل خطاباتهم فانثالت عباراتهم ودلالاتهم حسب الطبيعة التي أحاطت بهم .

وقد طفت صورة الطبيعة على صفحات شعر شعراء الحماسة الشجرية بثتى مظاهرها حتى غدا هذا الحقل الدلالي سمة أسلوبية بارزة جديدة بالدراسة .

ويمكن تعريف شعر الطبيعة بأنه "الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه"⁽⁴¹⁾، وقد عرف الشعر العربي القديم شعر الطبيعة من خلال الصور التي تنتشر بكثرة في أبيات القصائد القديمة ، فصورت الطبيعة الصحراوية البدوية بكامل مظاهرها ، كما عرف الحضارة والتمدن ووصف الرياض والجداول والأنهار مع تقدم الزمن واحتكاكه ببيئات مختلفة ، وهذا ليس غريباً فالشاعر ابن بيئته . والأدب انعكاس للواقع الإنساني وهذا الانعكاس يكون أكثر صدقاً وحيوية وتعاملية مع الواقع وذلك لأن العمل الأدبي يعكس العملية المتكاملة للحياة⁽⁴²⁾.

ويمكن تقسيم الطبيعة إلى قسمين هما الطبيعة الصامتة ، والطبيعة المتحركة أو الحية . وتضم الطبيعة الصامتة الطبيعة الحقيقية، كالجبال والأنهار والأمطار و الجبال والرياح و الشجر والنبات والسماء وما تحويه ويتعلق بها كالنجوم والكواكب والرياح وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة السماوية ، كما وتضم الطبيعة الصامتة ما كان من صنع الإنسان كالقرى والقصور والآبار والديار والرسوم والأطلال⁽⁴³⁾.

وتضم الطبيعة المتحركة أو الحية الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات وكل معالم الحياة المتحركة غير الإنسان⁽⁴⁴⁾.

أولاً: الطبيعة الصامتة

1) الماء ومتعلقاته

وردت لفظة الماء ومتعلقاتها بصورة كبيرة في أشعار وقصائد الحماسة الشجرية ، حيث استعان شعراء الحماسة الشجرية بالماء ومتعلقاته في تشكيل خطاب شعري فياض مليء بالدلالات ، سواء كان هذا الاستعمال حقيقياً ، أو خرجوا به إلى المجاز ، في

(41) نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي (ص11).

(42) ينظر ، سلدن ، النظرية الأدبية المعاصرة (ص55).

(43) ينظر ، القيسي ، الطبيعة في العصر الجاهلي (ص22).

(44) ينظر ، المرجع السابق ، ص94.

انزياح⁽⁴⁵⁾ أسلوبية أيقظ حاسة التنبيه لدى المتلقي ، وجعله أكثر تماهياً وتفاعلاً مع النص ، ومما ورد في هذا الحقل الدلالي قول الشاعر الأعشى (من البسيط) :

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعَشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ⁽⁴⁶⁾
استعمل الشاعر المتعلقات الخاصة بالماء للدلالة عليه في وصفه الذي أراد تصويره للمتلقي فحذف الموصوف الماء أو السيل الذي أشار إليه الشاعر إشارة جميلة بقوله : (جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ) فقد مثلت هذه الكلمات مجتمعة حقلاً دلالياً لا يمكن معرفة معانيه إلا بمعرفة الانزياح الذي حدث في النص ، ومعرفة الأوصاف الخاصة بالماء ، ومن ذلك أيضاً قول الشاعر عنتر بن شداد (من الكامل) :

أَوْ رَوْضَةٌ أَنْفَاءً تَضُمَّنْ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلٌ الدَّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ
جَادَتْ عَلَيْهِ كُؤْلٌ بِكَرْ حُورَةٌ فَتَرْكُنْ كُؤْلٌ قَرَارَةٌ كَالدِّرْهَمِ
سَحَاءً وَتَسْكَاباً فَكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ⁽⁴⁷⁾

فقد استعمل الشاعر الكثير من متعلقات الماء للدلالة عليه مثل (الغيث ، بكر حرة أي السحاب المحمل بالمطر ، قرارة أي الحفرة الصغيرة التي يملأها الماء للدلالة على كثرة الماء المنهمر ، السح والتسكاب) إلى أن قال الشاعر: يجري عليها الماء وهو بهذا يُشكل حقلاً دلالياً خاصاً متشابكاً من خلال الصورة الكلية الجميلة التي رسمها ، بحيث تدفع هذه الصورة المتلقي إلى إمعان النظر في العلاقات الخاصة بين مفردات هذا الحقل ، من أجل استجلاء المعنى العام ، والوقوف على مراد الشاعر . وما زال الشعراء يستعملون لفظ الماء ومتعلقاته في الدعاء بالسقيا في قصائدهم كما في قول الشاعر عبد الله بن المعتز (من الكامل) :

ما مثل منزل الدوية منزلٌ يا دار جادك وإبلٌ وسقائكِ
بؤساً لدهر غيرتكِ صروفه لم يمخُ من قلبى الهوى ومحاكِ
وكانما حصباء أرضكِ جوهراً وكان ماء الورد دمغ ندادكِ
وكان درعاً مفرغاً من فضة ماء الغدير جرت عليه صباكِ⁽⁴⁸⁾

وقد عمد شعراء الحماسة الشجرية إلى استعمال لفظ الماء ومتعلقاته للتعبير عن معاني المدح ، مما مثل انزياحاً أسلوبياً في المعنى الحقيقي لهذه اللفظة ، تتمثل هذا المعنى في قول الشاعر (من البسيط):

أنت الجوادُ ومنك الجودُ أوْلُهُ فإن هلكت فما جودٌ بموجود
من نور وجهك تُبدي الأرض زهرتها ومن بنائك يجري الماء في العود⁽⁴⁹⁾

(45) الانزياح أو الانحراف ، أو العدول ، أو الغموض الدلالي مسميات لمصطلح واحد اختلفت المسميات لاختلاف المرجعيات ، وهو أحد المظاهر التي يتميز بها الأسلوب الشعري ، فهو عنصر يميز اللغة الشعرية ويعطيها خصوصية ، تميزها عن اللغة العادية بما يضيفه هذا العنصر من تأثير جمالي ، له أثر بالغ في النصوص ، ويتجلى الانزياح في خرق الشعر قانون اللغة ، واستعمالها استعمالاً غير عادي، بحيث تتبدى قدرة الانزياح على إبراز الدلالة . ينظر ، عياد ، اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب (87) . و. ناظم ، مفاهيم الشعرية (ص115)

(46) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص749).

(47) المرجع السابق ، ص750.

(48) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية(ص752).

(49) المرجع السابق ، ص405.

ومنه قول سلم الخاسر (من الطويل):

إِذَا نَزَلَ الْفَضْلُ بِنَ يَحْيَى بِنَلْدَةٍ رَأَيْتَ بِهَا عُشْبَ الْمَكَارِمِ يُنْبِتُ (50)

ومثله قول الشاعر (من الكامل) :

إِنْ تَأْتِيهِ تَرَمْنَةُ مِنْهُ مَرْتَعًا خَصْبًا وَالْأَرْضُ مُجْدِبَةٌ كَخَدِّ الْأُمْرِدِ (51)

كما استعان الشعراء بالماء ومتعلقاته في تشكيل خطابهم الرثائي ، لبيان فضل المرثي وكرمه وجوده ، ومنه قول الخنساء ترثي أباها صخرًا (من الطويل) :

وَمَا الْغَيْثُ فِي جَعْدِ الثَّرَى دَمَتْ الرِّبَا تَبَعَّقَ فِيهِ الْعَارِضُ الْمَتَهَأْلُ

بِأَجْرَلِ سَيِّبًا مِنْ يَدَيْكَ وَنِعْمَةٌ تَجُودُ بِهَا بَلَّ سَيِّبُ كَقَفِّكَ أَجْرَلُ (52)

ومنه قول الشاعر (من الطويل) :

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ بَعْدَمَا شَاعَ ذِكْرُهُ وَشَرَّقَ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ وَعَرَبَا

وَمَا كَانَ إِلَّا كَالسَّحَابَةِ أَقْشَعَتْ وَقَدْ تَرَكْتُ لِلنَّاسِ مَرْعَى وَمَشْرَبَا (53)

ومنه قول الشاعر ثابت قطنه بن كعب يرثي يزيد بن المهلب بن أبي صفرة(من الكامل) :

وَلَقَدْ بَسَطْتَ لَهُمْ يَمِينًا بِالْأَنْدَى مَثَلِ الْفُورَاتِ تَمُدُّهُ الْأَنْهَارُ (54)

وقد استعمل شعراء الحماسة الشجرية لفظ الماء مضافا في التركيب النحوي للدلالة على الخمر مما أسهم في نقل معناها الأصلي إلى معنى جديد يتطلبه السياق، وتقضيه طبيعة الغرض الشعري كما في قول الشاعر أبو الهندي (من الرمل) :

أَتَلَفَ الْمَالَ وَمَا جَمَعْتُهُ طَلَبُ اللَّذَاتِ فِي مَاءِ الْعَنْبِ

وَاسْتَبَأَى السَّرَقَ مِنْ حَانُوتِهِ شَائِلِ الرَّجْلِينَ مَعْصُوبِ الدَّنْبِ

كُلَّمَا كُتِبَ لِشَرِبِ خَلْتُهُ حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ (55)

2) الهواء ومتعلقاته

استعان شعراء الحماسة الشجرية بلفظة الهواء ومرادفاتها في تشكيل الخطاب الشعري لديهم ، وجاء هذا التوظيف في عدة أغراض أهمها المديح ، و الغزل ، والشوق والحنين ، فكانت ريح الصبا مسيطرة على عواطف ومشاعر الشعراء توجج نار الحب والهوى بهبوبها ، وتذكرهم ريح الجنوب بمنازل المحبوبة ، فانطلق شعرهم رفاقا عذبا من نفوس ألم بها ألم الفقد ، وفقدت حرارة اللقاء ، واستبد بها البعد والجوى ، ومما جاء في إطار هذا الحقل الدلالي قول الشاعر أبو الشيص (من البسيط) :

(50) المرجع نفسه ، ص377.

(51) المرجع نفسه ص378.

(52) المرجع نفسه، ص325.

(53) المرجع نفسه ، ص302.

(54) المرجع نفسه ، ص330.

(55) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص838).

يا مَنْ تَمَنَّى على الدُّنيا مُنَى شَطَطاً
 ما هَبَّت الرِّيحُ إلا هَبَّ نائِلُهُ
 هَلَّا سَأَلتْ أبَا بِشْرٍ فَتُعْطَاهَا
 ولا ارتقى غايَةً إلا تَخَطَّاهَا (56)

فقد استعمل الشاعر لفظ الريح في تشكيل خطابه للممدوح ، لبيان جوده وشدة كرمه على الناس والمحتاجين ، فهو يلبي حاجات الناس وإن حسب أصحاب هذه المنى أن أمانهم مستحيلة . فالمقصود بالريح هنا المطر الذي يأتي به الريح ، وقد عمد الشعراء تشبيه الممدوح أو المرثي بالسيل أول المطر دلالة على جوده وكرمه ، وهنا انزاح المعنى الأصلي للريح إلى المطر الذي يسببه في إشارة واضحة إلى الجود والكرم الشديدين .

ومما جاء من هذا الحقل قول الشاعر محمد بن عبد الملك الفقعسي (من الطويل) :

وَأَيْ لأرعى النجمَ حَتَّى كَأَنَّي
 وأشأتاقُ للبرقِ اليماني إذ بدا
 على كل نجم في السماء رقيبُ
 وأزدادُ شوقاً أن تُهَبَّ جَنُوبُ (57)

فالشاعر بعيد عن وطنه منفي عنه ، يسهر طوال الليل يحلم بالعودة ، وتزيده ريح الجنوب المنبعثة من تلقاء وطنه شوقاً وحنيناً لا ينقطع . فريح الجنوب ليست إلا مهيجا للحنين والحلم بالعودة ، وعلى هذا فقد انزاحت معاني هذا اللفظ أسلوبياً فأصبح المراد الوطن الذي تهب من جهته هذه الريح .

ومما جاء من هذا الحقل في غرض الغزل قول الشاعر علي بن علقمة (من الطويل):

إذا الرِّيحُ من نحو الحبيبِ تَنَسَّمَتْ
 وَجَدْتُ لِرِيَّاهَا على كَبِدي برداً (58)

فالشاعر لا يرتاح إلا بهبوب الرياح من جهة سكنى محبوبته التي فارقتها . فلم يكن بينهما رسول إلا الريح ، تبلغه أحوالها ، وتبرد نار الشوق المتأججة في جوانح الشاعر ، وقد وُفِّق الشاعر هنا في استعمال عناصر الطبيعة في توصيف حالته النفسية للمتلقى . ومنه قول الشاعر مجنون ليلي (من الطويل) :

أَيَا جَبَلِي نَعْمَانُ بالله خَلِيَا
 أَجْدُ بَرْدَهَا أو تَشْفِ مني صَابَاً
 وإنَّ الصَّبا رِيحٌ إذا ما تنسَّمَتْ
 ويا رِيحُ مُرِّي بالديار فَخَبْرِي
 ومنه قول الشاعر إبراهيم بن العباس الصولي (من الطويل):

تَمُرُّ الصَّبا صَفْحاً بساكن ذي الغُضا
 قَرِيبَةً عهدٍ بالحبيبِ وإنما
 نَسِيمَ الصَّبا يَخْلُصُ إلى نَسِيمِهَا
 على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صَمِيمِهَا
 على نَفْسٍ مَهْموم تَجَلَّتْ هُمومِهَا
 أباقيَّةٌ أم قد تَعَفَّتْ رسومِهَا (59)

فَيُصَدِّعُ قلبِي أن يَهَبَّ هُبُوبِهَا
 هوى كُلى نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبِهَا (60)

(3) النبات ومتعلقاته

شكلت نباتات الطبيعة وما تحويه من أشجار وورود وزهور على اختلاف أنواعها وأشكالها باعثا يستلهم الشعراء منه معانيهم ، فقد كانت النباتات على كافة أشكالها أرضاً خصبة للكثير من المعاني التي شكلت حقولاً دلالية متصلة ببعضها ، سواء في العصر

(56) المرجع السابق، ص399.

(57) المرجع نفسه ، ص399.

(58) المرجع نفسه، ص578.

(59) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص 580).

(60) المرجع السابق ، ص 582.

الجاهلي أو العصور التي تلت ذلك حسب ما اختاره ابن الشجري من الشعر على مر عدة عصور ، وهذه الحقول المنتزعة من الطبيعة سواء كانت صحراوية ، أو حضرية تعج معالمها بكافة أنواع التمدن الذي ظهرت معالمه من خلال الروضات التي أُقيمت فيه فكانت معينا لا ينضب للشعراء في وصفهم ، أو تشبيهاهم . ولعل هذا الاهتمام بالروضات والبساتين بعد التمدن الذي عاشه العرب بعد العصر الجاهلي واتساع رقعة الخلافة جاء بديلا عن وصف الإبل والقفار في مطالع القصائد⁽⁶¹⁾. والملاحظ على الشعر الذي تناول أصناف النبات وخاصة الأزهار والروضات ، أنه شكّل حقلاً دلالياً تتسم مفرداته بالثراء والتنوع ، فهو يعكس مدى ارتباط الشاعر بالطبيعة ، والشغف الكبير بمحتوياتها الخلابة ، التي أمدته بأنواع جديدة ساحرة للتعبير عن مراده ، وغذت خياله بأصناف شتى من الوهج الموسيقي، فكانت مصدر إلهام متجدد بتجدد مظاهرها. ومن أمثلة مفردات هذا الحقل قول زهير في المدح (من الطويل) :

على مكثريهم حَقٌّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ
سعى بعدهم قومٌ، لَكى يدركوهم
فما كان، من خير، أتوه فإنما
هل ينبتُ الخطيَّ إلا وشيجة

وعند المُقلِّين السَّماحةُ والبذلُ
فلم يَفْعَلُوا ولم يُلِمُوا ولم يَألُوا
تَوَارَتْهُمُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وتَغْرَسُ، إلا في منابتها، النَّخْلُ⁽⁶²⁾

لقد استعمل الشاعر في مدحه مفردات من الطبيعة ذات دلالات خاصة في تشكيل خطابه الشعري المادح ، للدلالة على القوة والشموخ فاستعمل من بين نباتات الطبيعة وأشجارها الوشيج ، والنخيل . والوشيج شجر يُتخذ من فروعه القنا والسهام للدلالة على القوة والنفوذ ، واستعار الشموخ من النخيل لهؤلاء القوم الذين خصهم بالمدح .

وقد استعان شعراء الحماسة الشجرية بمفردات الطبيعة الخاصة بالأشجار والأزهار في تشكيل خطابهم الشعري المملوء بالحب والحنين إلى أوطانهم التي أُبعدوا عنها ، حيث مثلت حقلا دلاليا ، استدعاه الشاعر للتضامن معه في حالته النفسية التي تضج بالحنين والحب ، وتحمل في طياتها الكثير من معاني الضيق جراء هذا البعد ، فدعا الشاعر عناصر الطبيعة واستحضرها لتقاسمه همه الذي لا يزول ولا ينتهي إلا بالرجوع والعودة ، وهو ما تتمثله في قول الشاعر يحيى بن أبي طالب اليمامي (من الطويل):

أيا أثلاتِ القاع من بطن توضح
ويا أثلاتِ القاع قد ملَّ ضحبتى
ألا هل إلى شمّ الخزامى ونظرة
حنيني إلى أظلالك من طويـل
سُرّاي فهل في ظلك من مقيـل؟
إلى قرقرى قبل الممات سبيل؟⁽⁶³⁾

فالشاعر يحن إلى تلك الشجرات القابعة في موطنه ، فقد زاد حنينه إلى ظل تلك الشجرات ، كما أن حنينه موصول إلى زهر الخزامى الذي مثل له طيب رائحة وطنه البعيد .

ومن الألفاظ التي ساهمت في تشكيل هذا الحقل (الرياض ، شقائق النعمان ، الأقحوان، النرجس) حيث أبداع هؤلاء الشعراء في وصف الرياض والخضرة كما في قول أبي هلال العسكري(من الرجز) :

(61) ينظر ، الطيب ، الطبيعة عند المتنبي (ص8).

(62) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص 350).

(63) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص208).

كاسية البُطون والظهُور
وأقحور وان كُغور الخُور
والطُّل منثورٍ على المنثور⁽⁶⁴⁾

ويَعَجُزُ الوُصفُ عَن تحديدِ مُعْجِبِهِ
وريحهُ عُنْبُرٌ تحيا النفوسَ به⁽⁶⁵⁾

حُسْنُ الزِيَاضِ وصوتُ الطائرِ العُردِ
إلا تَبَيَّنَتْ فِيهَا ذُئبَةُ الحَسَدِ
تَجَلَّو القلوبُ مِنَ الأَوْصَابِ والكَمَدِ⁽⁶⁶⁾

وروضه حاليه الصُّور
شقائق كذاظر المَخْمُور
ونرجس كذاأنجم السديجور
ومنه قول الشاعر (من البسيط) :

إِنَّ البَنْفَسَ جَ تَرَخَ القُلُوبِ وَيَ أَلَهُ
أوراقُهُ شُعَلُ الكِيزِيتِ مُنْظَرُهُا
ومنه أيضا قول علي بن الجهم (من البسيط) :

لَمْ يَضْحَكِ الوَرْدُ إِلا جِينَ أَعْجَبَهُ
ما قابِلَتْ قُضْبُ الرِّيحانِ طَلَعَتُهُ
قامت بِحُجَّتِهِ رِيحُ مُعْطَرَةٍ

4) السماء ومتعلقاتها

كان لفظ السماء وما يتعلق بها حضور واضح في أشعار الحماسة الشجرية ، حيث عمد الشعراء إلى توظيف هذا الحقل في عدد غير قليل من الأغراض الشعرية وخاصة الرثاء والمدح في توصيل خطابهم الشعري للمتلقي ، ومن هذا القبيل قول الفرزدق يرثي وكيع بن أبي سود(من الطويل):

ولا الشَّمْسَ إِلا ذَكَرَنا لِي بِغالِيبِ
بيبة ابن ليلي يَمُحُ ضَوْؤُهُ الكواكِبِ⁽⁶⁷⁾

فقد أعطى الشاعر في نصه معاني جديدة للشمس والبدر، فهي بحد ذاتها الرجل الذي يرثيه ، حتى فاق جماله الكواكب التي انمحي نورها إذا بدا هذا الشخص .ومما جاء من هذا الحقل في المدح قول الشاعر ابن أبي طاهر (من البسيط):

لَمْ يُحْمَدِ الأَجْوَدا: البَخْرُ والمَطْرُ
تَضائِلُ النيرانِ : الشَّمْسُ والقَمَرُ⁽⁶⁸⁾

إذا أبو أحمد جادت لنا يَدُهُ
وإن أضاءت لنا أنوار غُرَّتِهِ

ومنه أيضا قول الشاعرة جنوب أخت عمر ذي الكلب الهذلية ترثي أباها عمرا (من المتقارب) :

وكنت دُجى الليلِ فِيهِ الهَلالا⁽⁶⁹⁾

فَكُنْتُ النَّهارَ بِهِ شَمْسُهُ

ومنه قول الشاعر أبي الفتح البستي يرثي أبا القاسم بن عباد (من الطويل) :

(64) المرجع السابق ، ص759.

(65) المرجع نفسه ، ص766.

(66) المرجع نفسه ، ص767.

(67) المرجع نفسه ، ص301.

(68) المرجع نفسه، ص403.

(69) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص310).

مضى صاحب الدنيا فلم يبق بعده
فقدناه لما تم عند كماله
وقد استعمل شعراء الحماسة الشجرية مفردات هذا الحقل في الهجاء للتعبير عن صعوبة المنال ، واستحالة بلوغ الهدف كما في
قول الشاعر عمر بن لجأ التيمي (من البسيط) :

إن الفحول لكم تيمم وأنكم
دع الرباب وسعداً نسيت نائلها
ومما جاء في هذا الحقل الدلالي ممتزجا بالمشاعر والأحاسيس ، حيث أسقط الشاعر همومه على مظاهر الكون من نجوم وكواكب
فبات مراقبا لها ، قول الشاعر (من الطويل) :

وإنى لأرعى النجم حننى كأننى
وأشفاق للبرق اليماني إذ بدا
لقد كرس شعراء الحماسة الشجرية ألفاظ هذا الحقل ودلالاته للتعبير عن مواقف معينة استوحوها من أعماق السماء وخاصة القمر
و النجوم والكواكب ، لما تمثله هذه الرموز من أهمية كبيرة ناتجة عن طبيعة البيئة التي يعيشون فيها .

ثانياً الطبيعة المتحركة أو الحية

كان للطبيعة المتحركة دور كبير في تشكيل الخطاب الشعري عند شعراء الحماسة الشجرية ، حيث استمدوا الكثير من معالم
هذه الطبيعة في تكثيف دلالاتهم حسب الأغراض الشعرية الناتجة عن عواطف متباينة . فأكثرنا من وصف حيوانات الصحراء
المفترسة ، كما وصفوا حيواناتهم الأليفة مثل الخيل والإبل ، كما أكثرنا من ذكر طير الحمام موظفين أصوات هذا الطير للتعبير
عن حالة نفسية معينة ، حيث كان لتوارد ذكر هذه الحيوانات صدى كبير في تشكيل حقل دلالي يعج بمختلف أنواع الدلالة حسب
الحيوان الذي تم ذكره لتشكيل وإبراز عاطفة الشاعر .

ومن الحقول الدلالية المتعلقة بالطبيعة المتحركة ألفاظ الحيوانات الأليفة والمفترسة ، فقد كان لحضور الحيوانات الأليفة وخاصة
الإبل والخيل نصيب الأسد في تشكيل الخطاب الشعري عند شعراء الحماسة الشجرية وهو ما شكل حقلًا دلاليًا خاصا ليس في
الحماسة الشجرية وحدها بل هو ميزة وسمة في الأدب العربي بشكل عام وخاصة الجاهلي منه فالأدب العربي "عني بوصف الإبل
والخيل عناية عجيبة ، وإنما نستطيع أن نقول : إنه ليس في آداب العالم أدب وصف هذين الحيوانين واهتم بدقائقهما وخصائصهما
، واستقصى حركاتهما ووصف أعضاهما مثل الأدب العربي . وطبيعي أن تكون تلك العناية منبعثة من منافع هذه الحيوانات
للعربي في صحرائه فهو يعد بعضها للحرب والغزو والصيد ، ويستعين ببعضها لتفريخ همه ، وتخفيف أحزانه ، ويستخدم البعض
الآخر في التقل والترحال والغذاء ، وكانت الإبل والخيل أولى تلك الحيوانات باهتمامه لأنها أوثق بحياته ، وأشدّها صلة
بمستقبله"⁽⁷³⁾.

(70) المرجع السابق ، ص346.

(71) المرجع نفسه ، ص436.

(72) المرجع نفسه ، ص399.

(73) القيسي ، الطبيعة في العصر الجاهلي (ص96).

أ- الإبل

جاء لفظ الإبل في شعر شعراء الحماسة الشجرية منبتقا من الواقع والبيئة التي تحيط بالشعراء ، كونها مثلت عماد الحياة في الصحراء القاحلة ، فاستعان بها الشاعر العربي في شتى شؤون حياته اليومية فوصفها في حله وترحاله ، واستعان بها كأحد المشكّلات في تشكيل خصلة الكرم والجود فيه ، فرغم أهميتها ما كان العربي يتوانى في ذبحها لإكرام ضيفه إذا تقطعت به السبل . كما كانت الإبل أحد أهم العناصر في تشكيل عاطفة الشاعر في مقدمات القصائد القديمة فقد مثلت الناقة أيضا حالة البعد والفرق بارتحال الطعائن التي مثلت دلالات ابتعاد المحبوبة ، واستشراق أوقات البعد والألم والشوق التي عانى منها الشاعر العربي جراء هذا الرحيل .

كما كان للناقة نصيب وافر في الاستعانة بها لتشكيل عاطفة الحنين إلى الأوطان .

ولهذا اللفظ حضور متميز تحت مسميات عدة منها (الناقة ، العيس ، القلوص ، البكر ، الراغية ، الدعلبة ، المطايا الهضاب ، السهلبة) وغيرها من الأسماء أو الصفات التي استعملت للدلالة عليها حيث شكلت حقلا دلاليا أسلوبيا بارزا في حماسة ابن الشجري .

ومما جاء في حماسة ابن الشجري من هذا الحقل قول الشاعرة فارعة بنت شداد المُرِيّة ترثي أباها (من البسيط) :

نَحَّارَ رَاغِيَّةً، قَتَّالَ طَاغِيَّةً حَلَّالَ رَابِيَّةً، فَكَّالَ أَقْيَادِ (74)
فقد استعانت الشاعرة في رثائها ببيان شدة كرم أخيها بنحره الناقة التي أطلقت عليها اسم الراغية ، والراغية وصف للناقة العظيمة ثم استعمل اسما لها وقد أكدت الشاعرة معاني هذا الكرم الوارد في الأبيات باستعمال صيغة المبالغة نَحَّارَ .

ومنه أيضا قول الشاعر (من الوافر) :

بَأَمثالِ الهَضَابِ كَأَنَّ رَجَبًا عَلَيْهَا مِنْ بَنِي حَامِ قُودًا
أَبَا وَهَبٍ جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا نَحْرَانَهَا وَأَطْعَمَنَا التَّرِيْدَا (75)

فأمثال الهضاب هي النوق الكبيرة العظيمة ، نحرها الشاعر لإطعام ضيوفه وإقراءهم ، فاستعمل الوصف له دلالة كبيرة على أن ما ذبحه الشاعر هو أجود ما عنده لذلك حذف الموصوف ، وأشرك الوصف في هذا الحقل الدلالي لتوسيع الدلالة ، وإطلاق العنان لخيال المتلقي في تكوين وصف ملائم لهذه النوق .

ومن أمثلة استعمال أسماء الناقة في الرثاء أيضا قول الشاعر طُفيل الغنوي (من الوافر) :

وَلَمَّ أَرَّ هَالِكًا فِي النَّاسِ أَوْدَى كَزُرْعَةٍ يَوْمَ قَامَ بِهِ النَّوَاعِي
أَجَلٌ رَزِيَّةٌ وَأَعَزُّ فُقْدَا عَلَى الْمَوْلَى وَأَكْرَمٌ فِي الْمَسَاعِي
وَأَغْرَزَ نَائِلًا لِمَنْ اجْتَدَاهُ مِنْ الْعَافِينَ وَالْهَلَكَى الْجِيَاعِ
وَأَكْثَرَ رِحْلَةً لِطَرِيقِ مَجْدٍ عَلَى أَقْتَادِ دِعْبَانَةٍ وَسَاعِ (76)

فقد عمد الشاعر إلى توظيف لفظ الدعلبة أي الناقة الشابة الفتية سريعة المشي في تشكيل خطابه الرثائي ليفيد بيان شجاعة وإقدام المرثي في المعارك ، كما جاء استخدام هذا اللفظ أيضا لبيان أهمية الناقة ، كونها أحد أهم أدوات الحرب والقتال ، وقد شكل هذا اللفظ بوقوعه هنا انزياحا نسبيا في الدلالة لدى القارئ فنذكر الناقة هنا ليس للكرم وإطعام الضيف .

(74) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص304).

(75) المرجع السابق ، ص380.

(76) المرجع نفسه ، ص315.

ومما جاء في هذا الحقل الدلالي أيضا استعمال المطايا في الرثاء لبيان علو الهمة وجلالة القدر للمرثي كما في قول الشاعر فضل الرقاشي يرثي الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي (من الطويل) :

أَلَا نَ اسْتَرَحْنَا وَاسْتَرَحْتَ رِكَابُنَا
فَقُلْ لِلْمَطَايَا : قَدْ أَمِنْتَ مِنَ السُّرَى
وَأَمْسَكَ مَنْ يُجْبِدِي وَمَنْ كَانَ يَجْتَدِي
وَوَطِيءِ الْفِيَّافِي فَدَفْذَا بَعْدَ فَدْفَدِ (77)

شكّل الشاعر خطابه الشعري باستخدام لفظتين مثلتا بؤرة مركزية تنطلق منها معاني ودلالات المدح للمرثي ، فالشاعر لم يقل أن الفضل كان شجاعاً وكرماً ولكنه منح المتلقي فرصة إدراك واستجلاء هذا المعنى من خلال الشطر الأول (استرحنا واسترحت ركابنا) فقد استراح الجميع والراحة هنا بمعنى الأسي فلم تعد الركاب تخرج لإغاثة الملهوف ولا لإطعام الجائع ولا لمحاربة الأعداء بعد موت هذا الرجل ، ومما يؤكد ذلك أيضا البيت الثاني فالمطايا استرحت من عملها ليلا ونهارا فلم يعد عليها الذهاب في الفيافي والفقر .

ومما جاء أيضا من هذا الحقل قول الشاعر مروان بن أبي حفصة (من الطويل) :

تَحْنُ قُلُوصِي نَحْوَ صَنْعَاءِ إِذْ رَأْتُ
سَمَاءَ الْحِيَا مِنْ نَحْوِ صَنْعَاءِ تَبْرِقُ
تَحْنُ إِلَى مَرَعَى بِصَنْعَاءِ مَخْصَبُ
وَشِرْبُ رُؤَايَ مَسَاؤُهُ لَا يَرْتَقُ
وَقَدْ وَثِقْتَ أَنْ سَوْفَ يَصْبِحُ رِبْهَا
ذَا وَرِدَتْ أَحْوَاضٌ مَعْنَى وَيَعْبِقُ
تَسْوُومُ شَرِيكِيَا تَهْلِلُ بِالْحِيَا
مَخَائِلُهُ لِلشَّائِمِينَ فَتَضُدُّ (78)

فقد جعل الشاعر كرم ممدوحه ليس على الناس فقط وإنما على الحيوانات أيضا فقد أصبحت النياق في حنين دائم أن ترد أحواض معن لما فيها من وفير الخضرة والماء للدلالة على شدة الكرم والجود.

ومما جاء أيضا في هذا الحقل الدلالي قول الشاعر كعب بن زهير يمدح الرسول ﷺ والمهاجرين (من البسيط) :

يَمْتَشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرَ يَعْصِمُهُمْ
ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّوْدُ التَّنَائِيلُ (79)

فاستعمل الشاعر للجمال في تشبيهه دلالة على أهميتها المطلقة في حياة الناس ، ومكانتها العالية في ذلك العصر . واستعمال هذا اللفظ شكل انزياحا في دلالة اللفظ فالمقصود هنا علو الهامة والقامة ، بوجوه صافية مضيئة مشرقة .

ومن مفردات هذا الحقل كلمة العيس في قول أبي تمام (من البسيط) :

سَنْضَبُ الْعَيْسِ بِي وَاللَّيْلُ عِنْدَ فَتَى
كثِيرُ ذِكْرِ الرِّضَى فِي سَاعَةِ الْغَضَبِ (80)

حيث وظف الشاعر هذه اللفظة في مدحه ، وقرنها بالزمان الصبح والليل ، دلالة على دوام الحال فالممدوح كثير الرضا حتى في ساعات الغضب . وقد أصبح للإبل مكانة خاصة في نفوس أصحابها فاتخذوها خليلا يخاطبونه وينزلونها منزلة العاقل في الخطاب لما يجده الشاعر من وحدة في نفسه فما وجد إلا الإبل في هذه الصحراء أنيسا ، كما أن مخاطبة الإبل فيه إسقاط نفسي للتجربة الشعورية التي يمر بها الشاعر وخاصة الشعر المتحدث عن الحنين إلى الأوطان فهي الوسيلة الوحيدة لبلوغ وطنه البعيد أو إتيان محبوبته المهاجرة ، ومن ذلك قول الشاعر الفرزدق (من الوافر):

أَقُولُ لِنِيقَاتِي لَمَّا تَرَامَتْ
بِنَا بِي بِي بِي مُسْرَبِي لَهْ الْقَتَامِ
إِلَامٌ تَلْفَتِيْنَ وَأُنْتَبِتِ تَحْتِي
وَحَيُّرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَمَامِي؟

(77) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص338).

(78) المرجع السابق، ص392.

(79) المرجع نفسه ، ص354.

(80) المرجع نفسه ، ص401.

أغِيثِي مَن وَرَاءَكَ مِنْ رَبِيعٍ أَمَامَكَ مُرْسَلٍ بِيَدِي هَشَامِ
مَتَى تَرِدِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنَ التَّهْجِيرِ وَالسَّدْبَرِ الدَّوَامِي (81)

فقد شكل الشاعر خطابه إلى الناقة من خلال الحوار الذي أجراه مع ناقته ، وكأنه يتكلم مع إنسان يعي ما يقول من خلال استعمال عدة أساليب كالاستفهام والأمر .

ومما جاء من هذا الحقل الدلالي قول امرأة من بني عقيل (من الطويل):

خَلِيلِي قَدْ هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَةٌ قَلْبُوصُ الْعَبَائِدِينَ لَيْلَةٌ حَنَّاتِ
بَرَزْتُ لَهَا وَاللَّيْلُ مُلَقَّ رُوقَاةُ فَجَاوِبْتُهَا حَتَّى مَلَأَتِ وَمَلَّتِ (82)

برزت لفظة القلوص من خلال عاطفة الشوق والحنين للبعد عن الوطن ، فكانت الناقة نعم المعين على هذا البعد ونعم الأنيس المخفف هذا الشوق ، والملاحظ على الأبيات أن عاطفة الحنين مشتركة بين الشاعرة وناقته .

ومثله قول الشاعر (من الطويل) :

وَحَنَّتْ قَلْبُوصِي آخِرَ اللَّيْلِ حَنَّاتٌ فِيَا رَوْعَةً مَا رَاعِ قَلْبِي حَنِئُهَا
حَنَّتْ فِي تَنَائِيهَا وَثَبَّ لِعَيْنِهَا سَنَا بَارِقٍ وَهِنَا فُجُنَّ جُنُوتُهَا
فَمَا بَرَحَتْ حَتَّى ارْعُونَا لَصَوْتِهَا وَحَتَّى انْبَرَى مِنَّا مُعِينٌ يَعِينُهَا
تَجِنُّ إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ صَبَابَةٌ وَقَدْ بُتَّ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ قَرِينُهَا (83)

ومن ألفاظ هذا الحقل أيضا لفظ البكر الذي أطلق على الناقة كما في قول الشاعرة التي ستغادر أهلها بعد الزواج(من الطويل) :

أَلَا أَيُّهَا الْبَكْرُ الْأَبْيَاسِي، إِنِّي وَإِيَّاكَ فِي كَلْبٍ لِمَغْتَرِبَانِ
تَجِنُّ وَأَبْكِي إِنْ ذَا لَبْلَيْتُ وَإِنَّا عَلَى الْبَلْبُوي لِمَصْطَحْبَانِ
وَإِنْ زَمَانًا أَيُّهَا الْبَكْرُ ضَمْنِي وَإِيَّاكَ فِي كَلْبٍ لَشُرِّ زَمَانِ (84)

وإذا كان الشاعر العربي قد استعان بالناقة في حنينه لوطنه وكانت له خير الأنيس والمعين في احتمال البعد والغربة، فقد كانت أيضا أحد أهم الأدوات التي يستعين بها في حروبه على أعدائه ، تتمثل ذلك في قول الشاعر مروان بن أبي حفصة مستخدما أحد أوصاف الناقة ((من الكامل):

مَنْ كَلَّ سَهْلَبَةَ يَبِينُ بَنَحْرَهَا وَقَفْعُ الْقَنَا وَأَقْبُ كَالسِرْحَانِ (85)

استخدم الشاعر أحد أوصاف الناقة (سَهْلَبَةُ) أي الناقة الطويلة لبيان أهميتها في الحرب والتكنية بشجاعة ممدوحه فوق القنا في نحرها و مؤخراتها سالمة من الكوم ، وهو دليل على إقدامه وشجاعته.ومنه قوله أيضا (من الطويل) :

كَأَنَّ دَلِيلَ الْقَوْمِ بَيْنَ سُهُوبِهَا طَرِيدُ دَمٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ يَهْرُبُ
بَدَانٌ عَلَيْهَا وَهِيَ ذَاتُ عَجَارِفٍ تُقَاذِفُ صُغْرًا فِي الْبُرى جِينٌ تُجَذَّبُ (86)

وصف الشاعر ناقته بقوله (ذاتُ عَجَارِفٍ) أي سريعة نشيطة في السير فاكتفى بذكر الصفة لأنه يقوم مقامها ويستطيع المتلقي إدراكه وتأويله .

(81) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص372).

(82) المرجع السابق، ص603.

(83) المرجع نفسه ، ص604.

(84) المرجع نفسه ، ص603.

(85) المرجع نفسه ، ص389.

(86) المرجع نفسه ، ص603.

ب- الخيل

كان لفظ الخيل حضور واسع وصدى كبير في أشعار الحماسة الشجرية ، مثل هذا اللفظ ومرادفاته ، وصفات الخيل حقولاً دلالية مثلت سمة أسلوبية بارزة ، فقد أكثر شعراء الحماسة الشجرية من ذكر الخيل حتى أنهم أطلقوا عليها أسماء فقد "أحب العرب الخيل في العصر الجاهلي ، لما أدته لهم من نفع كثير ، لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربيتها ، عناية تفوق كل شيء ، وقد اشتهر الجاهليون بالمحافظة على أنسابها ، وعدم الخط بين سلالاتها ، فنراهم يخلدون ذكراها وصفاتها في قصائدهم ومقطعاتهم ... وكان إطلاق الأسماء على الخيل عادة مألوفة ومعروفة لئتمكنوا من تمييزها ، وليعرفوا الأصيل منها من غيره"⁽⁸⁷⁾ .

ويبدو اهتمام الشعراء بالخيل واضحاً جلياً من خلال تشكيل خطابهم الشعري المتعلق بالفخر والحماسة ، حيث استعملوا الخيل كأحد أهم الأدوات القتالية ، فقلما تجد قصيدة في حماسة ابن الشجري في الفخر والحماسة تخلو من ذكر الخيل ووصفها وإقدامها في الحروب .

لقد مثل لفظ الخيل ومرادفاتها وأسمائها وصفاتها وكل ما يتعلق بها حقلاً دلالياً يُموج بالدلالات متعددة المعاني ، ولهذا كان هذا الحقل جديراً بالدراسة الأسلوبية. ومما جاء من هذا الحقل قول الشاعر مخرز بن المعبر الصبي (من الطويل) :

وَإِنَّا لَتَضَطُّدُ الْكَمَاءِ رِمَاخُنَا إِذَا سَابَقَاتُ الْخَيْلِ زَلَّتْ لُبُودُهَا (88)

فقد استعان الشاعر في تشكيل خطابه الشعري من خلال فخره بالخيل السريعة التي ينزلق شعر رقبتها من الهواء المرتطم بها أثناء الجري ليدلل على سرعتها . ومنه قول الشاعر عامر بن الطفيل العامري (من الطويل) :

وَنَحْنُ وَقَفْنَا بِالْمُشَقَّرِ مَوْقِفًا كَرِيمًا تَرَى الْفُرْسَانَ مِنْ طَعْنِهِ قُوسًا
بَخِيلٍ عَلَيْهَا جَنَّةٌ عِبْقَرِيَّةٌ وَفَتِيَانٌ حَرْبٍ لَا تَرَى فِيهِمْ نَكْسًا
صَدْمَانَهُمْ حَتَّى إِذَا الْخَيْلُ عَزَدَتْ فِرَارًا مِنْحَنَاهُمْ بِضَمِّ الْقَنَا نَخْسًا (89)

شكل لفظ الخيل في هذه الأبيات حقلاً دلالياً سعى الشاعر من خلاله إلى إبراز قوتها وإبراز قوة فرسانها لذلك قدم لفظه الخيل على ما سواها في البيت الثاني ، وجاء تكرار لفظ الخيل في البيت الأخير للدلالة على سرعتها وقوتها ونفاذها في صفوف الأعداء .

ومن صور اهتمام العربي بفرسه والاعتناء به وتفضيله على باقي الحيوانات الأخرى حتى الإنسان نفسه قول الشاعر عنتر بن شداد العبسي (من الكامل) :

لَا تَذَكِّرِي فَرَسِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرِبِ
إِنَّ الصَّبُوحَ لَأَهْ وَأَنْتِ مَسْوَةٌ فَتَأْوِي مَا شِئْتِ ثُمَّ تَحْوِي (90)

فقد شكل لفظ الفرس في الأبيات السابقة أخص خصوصيات الشاعر ، فاخترت فرسه بطعام الصبوح مؤثره على أهله بهذا الطعام رغم اعتراض زوجته ، وبهذا يعطي هذا اللفظ دلالات كبيرة في الأبيات فالفرس ذو مكانة كبيرة عالية ، ويحظى باحترام كبير ، وأهمية تزيد في بعض الأحيان عن أهمية البشر لما يقدمه هذا الفرس من خدمات جليلة نافعة .

وقد بلغ اهتمام العرب بالخيل أن أطلقوا عليها أسماء تُعرف بها وتدل عليها ، وإطلاق الأسماء على الخيل مثل جزءا هاما من هذا الحقل الدلالي ، حيث نتمثل هذا المعنى في قول الشاعر عامر بن الطفيل (من الطويل) :

لَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا هَوَازِنَ أَنْبِي أَنَا الْفَارِسُ الْحَامِي حَقِيقَةً جَفَّوْر

(87) القيسي ، الطبيعة في العصر الجاهلي (ص106).

(88) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص4).

(89) المرجع السابق ، ص15.

(90) المرجع نفسه ، ص28.

وقد علمَ المزنوقُ أني أكره
إذا أزورَ من وقَّعَ الزمَّاحَ زجرُته
فأنبأته أنَّ الفِرَارَ خَزَايئةُ
ألسنتَ تَرى أزمَّاحَهُم في شُرْعَا
على جمْعِهِم كَرَّ المنِيحِ المُشْهَرِ
وقلنتُ له أَرْجِعْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرِ
على المَرءِ ما لم يُبَلِّجْهُدَا فَيُعْذِرِ
وأنتَ حِصَانٌ ما جِدُّ العِرْقِ فاضْبِرِ⁽⁹¹⁾

شكلت أسماء الخيل حقلا دلاليا ارتبط ارتباطا مباشرا بالحروب والمعارك من خلال الحوار الذي أجراه الشاعر مع فرسه الذي اسماه المزنوق ، فخطابه كونه إنسانا يعي النصائح ويأخذ بها ، وفي هذا تشخيص للفرس من خلال الحوار الذي تم داخل النص في قول الشاعر : أَرْجِعْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرِ ، فأنبأته أنَّ الفِرَارَ خَزَايئةُ ، ألسنتَ تَرى أزمَّاحَهُم في شُرْعَا ، وأنتَ حِصَانٌ ما جِدُّ العِرْقِ فاضْبِرِ ، إن هذا الحوار مع الحصان يدل على أن الشاعر ذو علاقة وطيدة مع فرسه الذي يخاطب فيه ذاتا إنسانية تتعاطف معه أثناء المعركة ومنه قول الشاعر ثابت فُطْنَةُ الرَّبِيعِي (من الوافر) :

كَرَّرْتُ عَلَيهِمُ النِّحْمَ وَوَمَّ كَرًّا
كَكَّرَ الشَّوْبَ آتِيَةَ المُوْدَامِ⁽⁹²⁾

ومما جاء من هذا الحقل الدلالي الأوصاف الكثيرة والمتعددة التي وصفوا بها الخيل وخاصة في أثناء المعارك والغزوات ، كما في قول الشاعر (من الطويل) :

لَقَدْ عَلِمْتُ نَبْهَانُ أَنِّي حَمِيئُهَا
غَدَاةَ نَبْذُومٍ بِالصَّعِيدِ رَمَّاحِكُمْ
بذِي شَطْبٍ أَغْشَى الكَتِيبَةَ سَهْلَبًا
إذا شَكَّ أَطْرَافَ العَوَالِي لَبَانُهُ
وأبِي مَنَعْتُ السَّابِي أَن يَتَبَدَّدَا
وَوَطَبَقْتُمُ البِيَدَاءَ مَثْنِي وَمَوْجِدَا
أَقْبَبُ كِسْبِ زَحَانِ الظُّلَامِ مُعْوَدَا
أُقَدِّمُهُ حَتَّى يَرى المَوْتَ أَسْوَدَا⁽⁹³⁾

فقد شكل الشاعر خطابه الشعري في الفخر بنفسه وبفرسه من خلال مترادفات عدة وأوصاف كثيرة للفرس ، فذو شطب مقدمة الفرس التي أصيبت مرات عديدة في المعارك للدلالة على شجاعة الفارس وإقدام فرسه في المعارك فمقدمة الفرس مصابة دائما ومؤخرته سالمة لا أثر فيها ليدلل الفارس على إقدامه فلو كان جباناً لكان العكس ، ثم ينتقل الشاعر ليصف فرسه فهو كالسرحان أي الذئب في سرعته وجراته وإقدامه فلبان الفرس أصيب مرات عديدة حتى رأى هذا الفرس الموت أكثر من مرة . لقد شكلت الأبيات السابقة دلالات الشجاعة والإقدام واليسالة في القتال ، حيث استخدم الشاعر لتقرير هذه الأوصاف ألفاظ الفرس وصفاتها كونها أحد أهم أدوات القتال استعمالاً .

ومما جاء من هذا الحقل الدلالي لفظ الجياد في تشكيل خطاب المدح لمعن بن زائدة في قول الشاعر مروان بن أبي حفصة (من الكامل) :

(91) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص22).

(92) المرجع السابق، ص216.

(93) المرجع نفسه ، ص71.

جَلَبَ الْجِيَادَ مِنَ الْعِرَاقِ عَوَابِسًا
جُرْدًا مُخْتَبَةً تُعَاوِضُ فِي السُّرَى
مِنْ كُفْلِ سَلْهَبَةٍ يَبِينُ بَنَحْرِهَا
حَتَّى أَغْرَنَ بَحْضَ رَمُوتِ شَوَازِبًا

قُبَّ الْبُطُونِ يُقَدِّنَ بِالْأَرْسَانِ
بِالْبَيْدِ كُلِّ شَيْمَلَةٍ مِذْعَانِ
وَقَفَّ الْقَنَا وَأَقْبَبَ كَالسَّرْحَانِ
مُقَوَّرَةً كَكَوَاسِرِ الْعِقْبَانِ (94)

فقد أكثر الشاعر من ذكر آلة الحرب الأولى في تشكيل خطابه فبدأ بالجياد ثم تتالت صفاتها فهي ، عوايس ، ضامرات البطون ، جردا أي قصيرة الشعر قليلته ، سهلبة ، مكلومة النحور . فشكلت هذه الصفات حقلا دلاليا كان المراد منه إظهار شجاعة الممدوح وإقدامه .

ومما جاء لتأكيد صفة الإقدام والشجاعة قول الشاعر (من الطويل) :

وَأَعْجَازُ خَيْلِي فِي الْهَيْجَاجِ سَوَالِمٌ
وَمَكْلُومَةٌ لِنَاتِهَا وَنُحُورُهَا (95)

ومما جاء من هذا الحقل الدلالي للدلالة على أهمية الفرس في حماية فارسه في المعركة قول الشاعر ضَبَيْعَةَ بْنِ الْحَارِثِ الْعَنْسِيِّ (من الوافر) :

جَزَى اللَّهُ الْأَعْرَجَ جَزَاءَ صِدْقٍ
يَقِينِي بِجَبِينِ وَمَنْكَبِيهِ
وَأَدْفِئُهُ إِذَا هَبَّتْ شَمَالٌ

إِذَا مَا أَوْقَدَتْ نَارَ الْخُرُوبِ
وَأَحْمِيهِ بِمُطَّرِدِ الْكُعُوبِ
بَلِيلِ حَرْجَفٍ بَعْدَ الْجَنُوبِ (96)

ومما جاء من هذا الحقل للدلالة على الشجاعة والإقدام أيضا قول النابغة الجعدي (من الطويل) :

وَنَحْنُ أَنْبَاسٌ لَا نَعْوُدُ خَيْلَنَا
وَتُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانُ خَيْلِنَا
فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا
ضَرْبَنَا بَطُونِ الْخَيْلِ حَتَّى تَنَاوَلَتْ

إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى تَحْسِبَ الْجُونَ أَشْقَرَا
صِرْحَا حَا وَلَا مِسْرَتَا أَنْ تُعْفِرَا
عَمِيدِي بَنِي شَيْبَانَ عَمْرُوا وَمُنْذَرَا (97)

• المبحث الثاني : حقل ألفاظ الحرب

عمد شعراء الحماسة الشجرية إلى تصوير شجاعتهم وبسالتهم بما يملكون من سلاح ، يكون له بالغ الأثر في تحقيق النصر في الحروب والمنازعات، لذلك وردت ألفاظ الحرب بكثرة في شعرهم، وخاصة السلاح وأسمائه وصفاته وأنواعه واستعمالاته ومن هذه الألفاظ . (السيف ، الرمح ، الدرع ، السهم ، الخطي ، الدلاص ، النجاد ، الزغف ، السوابغ ، القنا المشرفي، المهند، الهندي إلى غير ذلك من الأسماء والصفات) فقد استقى شعراء الحماسة الشجرية هذه الأسماء من واقعهم البيئي الذي يعيشون فيه، وكذلك من واقعهم النفسي والحربي معاً ، فيها يتحقق النصر وتكون الغلبة ، ويتضح بحسن استعمالها معالم القدرة القتالية ، وهذا الاهتمام بالسلاح ليس غريباً عن العرب فقد "اختصت العرب من بين الأمم بأربع : العمام تيجانها ، والدروع حيطانها ، والسيوف سيجانها ، والشعر ديوانها" (98).

(94) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص389).

(95) المرجع السابق ، ص191.

(96) المرجع نفسه ، ص88.

(97) المرجع نفسه ، ص97.

(98) الثعالبي ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص 159).

ومن ألفاظ الحرب وأدوات القتال التي كان لها بروز واضح في شعر شعراء الحماسة الشجرية السيف لما له من أهمية عظيمة ، ومكانة كبيرة سامية ومرموقة في نفس العربي ، الذي فاق بهذه المكانة غيره من أنواع السلاح الأخرى فقد سجل العربي من خلاله أروع الملاحم البطولية ، فخلد السيف ذكر العرب بين الأمم وخلد وقائع العرب وأيامها وخلدت العرب بانتصاراتها ذكر السيف وأنواعه وأسمائه وصفاته ، حتى بات الشعراء يستكفون بذكر الأوصاف للدلالة عليه ، فهو الملجأ عند اشتداد الحرب ، وهو المنجي في غمراتها .

وقد شكل هذا البروز الواضح للسيف في شعر الحماسة الشجرية حقلا دلاليا من كثرة الأوصاف والأسماء ، وقد وردت هذه الأسماء والصفات في تشكيل عاطفة الشعراء الجياشة بالفخر والحماسة الدالة على القوة والشجاعة ، ومما ورد من هذا الحقل قول الشاعر عنتر بن شداد (من الوافر):

وسيفي صارم لا قبضت عليه
أشاجع لا ترى فيها انتشارا(99)

فقد شكل الشاعر عاطفة الفخر والحماسة بالاستعانة بالسيف أحد أهم أدوات القتال لذلك قدمه وبدأ به للأهمية وللمكانة العالية لهذا السيف في نفس الشاعر ، فقد قبضت أصابعه على هذا السيف بقوة فلا تكاد ترى فراغات بين أصابعه من شدة قبضه عليه .
ومنه قول الشاعر (من الطويل) :

إذا ظلمت حكامنا وولاتنا
سؤوف كأن الموت حالف حدها
إذا ما انتصيناها ليوم كريهه
استعمل الشاعر السيف وبعض المفردات الأخرى الدالة عليه في تكثيف دلالة خطابه الشعري المتمسم بالفخر والحماسة والأنفة وعدم قبول الضيم فجاءت الكلمات المرهفات، الصوارم ، حدها ، مشطبة ، للدلالة على قوة وجبروت هذا السيف .

ومثله قول الشاعر كعب بن مالك الخزرجي (من الوافر):

قضى لنا من تهامة كمل إرب
نخيرها وأو نطقنت لقالنت
فأسنت لإحصن إن أزرگم
بأيديهم صارم مرهفات

وخبير ثم أجمنل السؤوفا
قواطفهن : دوسا أو ثقيفنا
بساحة دارگم منا ألوفنا
ثذيق المصطلين بها الحنوفنا(101)

ومن الألفاظ التي ساهمت في بناء هذا الحقل الدلالي ، مرادفات كلمة السيف مثل الصمصام ، والصارم ، كما في قول الشاعر عمرو بن معد يكرب (من الطويل) :

أبوعذني سغد وفي الكف صارم
فوالله لولا الله لا شيء غيره

سيمنع مني أن أدل وأخضعا
لججأت الصمصام أو يتقطعا(102)

فقد استعان الشاعر باسمين من أسماء السيف في تكثيف دلالات خطابه الحماسي ، حيث ساعد الاستفهام في بداية البيت الأول على إبراز المعنى المراد من (في الكف صارم) ، وساهم أسلوب القسم والتوكيد باللام على تقوية دلالات لفظة الصمصام أحد مرادفات السيف .

(99) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص26).

(100) المرجع السابق ، ص81.

(101) المرجع نفسه ، ص164.

(102) المرجع نفسه ، ص36.

ومنه أيضا قول بشار بن برد (من الطويل):

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ
وَأَزَعَنَ يَغْشَى الشَّمْسَ لَوْنُ حديدِهِ
تَغَصُّ بِهِ الأَرْضُ الفُضَاءُ إِذَا غَدَا
رَكِبْنَا لَهُ جَهْرًا بَكْلَ مُثَقَّفِ
كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا

مَشَّيْنَا إِلَيْهِه بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُهُ
وَيَحْسِبُنْ أَبْصَارَ الكَمَاءِ كِتَابُهُ
تُزَاحِمُ أَرْكَانَ الجِبَالِ مَنَاقِبُهُ
وَأَبْيَضُ تَسْتَسْقِي السِّمَاءَ مَضَارِيَهُ
وَأَسْيَافُنَا لِيَلَّ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ (103)

فقد عمد الشاعر في فخره إلى إبراز صورة السيف من خلال تكرار الألفاظ المرادفة له للدلالة على القوة والشجاعة وهذه الألفاظ (السُّيُوفِ ، مُثَقَّفِ ، أَبْيَضُ ، أَسْيَافُنَا) . ومن المرادفات لكلمة السيف أيضا، (البيض) ، التي جاءت ضمن هذا الحقل الدلالي في قول الشاعر النَّبَّاجِ بن مالك البُجْلِيِّ (من الطويل):

وَوَحْنُ أَنْاسٍ نَسَعَرَ الحَرْبَ بِالقَنَا
تَرَى البَيْضَ كالأَنْهَاءِ فِي حَوْمَةِ الوَعَى

إِذَا مَا خَبَّتْ حَتَّى يُفَوِّرُ جَحِيئُهُ
بَأَيْمَانِنَا مَشَّ هُورَةً لَانْشَأِيْمُهَا (104)

فالمقصود بالبيض، السيف، والأنهاء هي الغدير فهذا السيف أبيض مثل صفحة ماء الغدير اللامع المصقول دلالة على قوته وجبروت بتره ، واستعمال هذا اللفظ يمنح السيف داخل النص دلالات قوية في جودة الصنع ، ومهارة الصقل وقوة مشهده . ومن مرادفات هذا اللفظ أيضا (البتار) في قول عبيد بن الأبرص (من مجزوء الكامل) :

هَلْأَسْأَلْتُ جُمُوعَ كِنُوعِ
أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامِهِم

دَّةَ يَوْمٍ وَلَوْ أَيْنَ أَيْنَا؟
بِبِوَاتِرِ حَتَّى انْحَنَيْنَا (105)

فالبتار أحد أسماء السيف للدلالة على قوة بتره وقطعه ، وقد جاء بها الشاعر في سياق الجمع للدلالة على الكثرة . ومن ألفاظ هذا الحقل أيضا المتعلقة بأدوات القتال وبالسيف تحديدا لفظ المهند ، أو الهندي في دلالة إلى السيف المصقول المصنوع من حديد الهند ، حيث وردت هذه الألفاظ كثيرا في شعر شعراء الحماسة الشجرية في إطار العاطفة المتعلقة بالفخر والحماسة ومنه قول الشاعر عمرو بن معد يكرب (من الوافر) :

فَمَا أَوْهَى مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي
وَإِنْ لَا يُذْهَبُ الحِذَانُ نَفْسِي
بِفَتْيَانٍ إِذَا فَرَّغُوا تَرْدُوا

وَلَكِنْ مَا تَقَادِمُ مِنْ زِمَانِي
أَزْرُكُمُ يَبْنِي عِبْدَ المُدَانِ
بِكُلِّ مُهَنَّادٍ عَضْبِ يَمَانِ (106)

حيث عمد الشاعر في توجيه خطابه الحماسي إلى استعمال مرادفات السيف وأوصافه لتوسيع الدلالة التي تعطي النص بعدا حماسيا أكبر وأوسع من خلال تلك المرادفات والصفات الموجودة في النص ، فالفرسان قد تسلحوا بكل سيف مهند عضب أي لاذع وحاد وقارس ، من تلك السيوف اليمينية المشهورة . ومنه قول الشاعر مَقْبِيسُ بنُ صُبَابَةَ الكِنَانِيِّ (من الوافر) :

(103) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص215).

(104) المرجع السابق ، ص100.

(105) المرجع نفسه ، ص118.

(106) المرجع نفسه ، ص35.

أَلَا أَبْلِيغُ طَوَائِفَ آلِ بَكْرِ
بِمَا لَأَقْبَتْ سَرَاةَ بَنِي قُصَيِّ
نَسُوهُمْ بِبَيْضِ الْهِنْدِ سَوْقًا
وَعَبِيدِ اللَّهِ إِذْ نَزَّلُوا الشُّرَا
عَدَاةَ الشُّعْبِ إِذْ كَرَّهُوا الزَّحَامَا
يُصَادِعُ عَنِ الْجَمَاعِمِ وَالْعِظَامَا (107)

لقد منح لفظ (بيض الهند) النص دلالات القوة والأنفة والغلبة ، وهو ما أكده المفعول المطلق سَوْقًا في الشطر الأول وهو ما يؤكد الشطر الثاني الذي يدل على أن هذه السيوف قوية هندية جيدة الصقل يحملها فرسان شجعان .
ومنه قول الشاعر (من البسيط):

إِنْ تَوَعَّدُونَا بِشَيْبَانٍ وَجَمْعِهِمْ
فَنَحْنُ مَنِ خَيْرَتْ قَيْسٍ وَمَنْ عَلِمَتْ
وَإِنَّ أَسْبَابَنَا بِبَيْضِ مُهَنْدَا
وَجَمْعُ قَيْسٍ وَتَيْمِ السَّلَاتِ إِذْ حَشَدُوا
فِي النَّائِبَاتِ وَنَحْنُ الْمَسُوْتُ يَطْرُدُ
عُثْقًا وَآثَارَهَا فِي هَامِكُمْ جُدُّ (108)

ومنه قول الشاعر (من الطويل):

أَلَمْ تَرَ أَنَّنَا يَوْمَ جُنْنَا بِجَمْعِنَا
سَفَحْنَا دِمَاءَ مَنْ عَدِي أَبَا حَهَا
وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ عُمَيْرِ بْنِ جَابِرِ الْخَنْفِيِّ (مِنَ الطَّوِيلِ):

لِنَصْرِ أَبِي سُفْيَانَ جَيْشًا عَرَمَرَمَا
لَنَا كَلُّ هِنْدِي إِذَا هُرَّ صَمَمَا (109)

وَدَارَتْ رَحَائِنَا سَاعَةً وَرَحَاهُمْ
كَأَنَّ سُيُوفَ الْهِنْدِ فِي حُجْرَاتِهِمْ
لقد وظف شعراء الحماسة الشجرية لفظ السيف المهند في الكثير من قصائدهم دلالة على أنه أجود أنواع السيوف، وقيمته الكبيرة عندهم ، وقد حمل السيف الهندي عدة أسماء ، كلها ترجع به إلى الهند ، فيما شكل حقلًا دلاليًا رغم تعدد الألفاظ " فإذا كان السيف سُويّ بالهند فهو مهند وهندي وهندواني "⁽¹¹¹⁾، وهذه المسميات كلها وردت في شعر الحماسة الشجرية كما ورد في الأمثلة السابقة. ومن الألفاظ المنتمية إلى هذا الحقل الدلالي لفظ (المشرفي) ، وهي سيوف منسوبة إلى قرى من أهل اليمن⁽¹¹²⁾. كما في قول الشاعر العلاء بن قُرظَة (من الطويل) :

(107) المرجع نفسه ، ص152.

(108) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص166).

(109) المرجع السابق ، ص169.

(110) المرجع نفسه ، ص198.

(111) الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية (ص277).

(112) ينظر ، المرجع السابق ، ص277.

وَقَدْ عَلِمْتُ سَعْدُ بْنُ ضَبَّةَ أَنْنَا وَأَنَا نَقِيهِمْ بِالسُّيُوفِ وَنَتَّقِي
أَلُو الْعِزِّ مَعْرُوفٌ لَنَا وَالنَّكْرُ
عَدُوهُمْ بِالْمَشْرِفِي الْمَصْرَمِ (113)

ومثله قول الشاعر حبيب بن عمرو بن عُمَيْرِ التَّقِي (من المنسرح) :

طُرْنَا إِلَيْهِمْ بِكُلِّ شَأْهَبَةٍ وَكُلِّ عَضْبٍ فِي مَثْنِهِ أَثْرٌ
وَكُلِّ صِصَا فِي الْأَيْمِ كَالذَّهَبِ
وَمَشْرِفِي كَالْمَلْحِ ذِي شَطْبِ (114)

فقد شكل الشاعر خطابه باستعمال مرادفات للفظة السيف وصفات له مثل (عضب) ، و(في مته أثر) ، و(مشرفي) و(ذي شطب)، وقد تعددت هذه الأوصاف والأسماء للدلالة على القوة والفتك والجبروت فالعضب اللاذع الحاد القارص هو أحد الأوصاف الذي يوصف بها السيف ، وفي مته اثر ، ذي شطب ، للدلالة علة جودة الصقل فبدت في مته خيوط دقيقة واضحة في جنبه ، من شدة بياضه ، وقد عمد شعراء الحماسة الشجرية إلى تشبيه السيف في بياضه بالملح كما في قول الشاعر دِرْهَمُ بْنُ زَيْدِ الْأَوْسِيِّ (من الطويل) :

مَتَعْنَا عَلَى رَعْمِ ابْنِ عَجْلَانَ ضَائِمَنَا بِمَرْهَقَةٍ كَالْمَلْحِ مُحْدَثَةِ الصَّرْقِلِ (115)

وقد لجأ شعراء الحماسة الشجرية إلى حذف لفظ السيف من خطابهم الشعري وإبقاء ما يدل عليه من الصفات ، تتمثل ذلك في قول الشاعر الزبير بن عبد المطلب (من الوافر) :

وَيَدْفَعُ نَخْوَةَ الْمُخْتَالِ عَنِّي بِكَفِّ مُجْرَبٍ لَا عَيْبَ فِيهِ
رَقِيقُ الْحَدِّ ضَرْبُهُ صَمُوتٌ
إِذَا لَاقَى الْكَتِيبَةَ يَسْتَمِينُ (116)

فرقيق الحد ذو الضربة الصموت هو السيف وقد حذفه الشاعر لشهرته وشيوعه وسهولة تقديره من السياق ، وفي هذا توسيع للدلالة وإعمال لفكر المتلقي ، وإثراء لهذا الحقل الدلالي .
ومنه أيضا قول عمرو بن معد يكرب (من الكامل) :

أَعْدَدْتُ لِلْحِدَائِنِ مَطْرًا رَدًا لَدُنَّ الْمَهْرَةِ غَيْرَ ذِي وَصْمِ (117)

ومثله أيضا قول الشاعر أبو طالب بن عبد المطَّاب (من الطويل) :

كَدَبْتُمْ وَيِيئْتُ اللَّهُ نَبْرِي مُحَمَّداً وَسُئِلِمُهُ حَتَّى نَصَرَ حَوَائِهُ
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ نَحْوَكُمْ غَيْرُ عُرْلٍ
وَلَمَّا نَطَّاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلُ
وَأَذْهَلُ عَنَّا أَبْنَانَنَا وَالْحَلَائِلُ
بِيضِ حَدِيثِ عَهْدِهَا بِالصَّيَاقِلِ (118)

لقد استخدم شعراء الحماسة الشجرية لفظ السيف ، ومرادفاته ، وصفاته في تشكيل خطاب شعري ، يموج بدلالات الفخر والحماسة والعزة والأنفة والشموخ ، وقد جاء هذا الاهتمام الكبير بالسيف لأنه أقرب الأسلحة إلى نفسه وعنوان الفروسية والشجاعة والإقدام .
لقد كان للسيف أسماءه الشائقة في حياة العربي ، وألقابه المحببة إلى نفسه يدعوه عند الحاجة ، فيستجيب ويلبي الدعوة فكانت

(113) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص167).

(114) المرجع السابق ، ص174.

(115) المرجع نفسه ، ص151.

(116) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص192).

(117) المرجع السابق ، ص38.

(118) المرجع نفسه ، ص64.

الصلة وثيقة بين العربي وسيفه ، لذلك أضفى العربي على سيفه معاني الشرف (119). لقد بلغ الأمر بشعراء الحماسة الشجرية إلى منح السيف صفة الإنسانية فمدحوا به ، واستمدوا منه معالم ودلالات الكرم والجد ، مما شكل انزياحاً أسلوبياً بعيداً عن المعنى الحقيقي لهذا اللفظ ، ومما ورد في الحماسة الشجرية من ذكر السيف يراد به المدح قول كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ (من البسيط):

إِنَّ الرُّسُولَ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ وَصَارُمٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ (120)
ومن الصفات الإنسانية التي منحها الشعراء السيف للدلالة على القوة والكرم ، قول الشاعر فضل الرقاشي يرثي الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي (من الطويل) :

أَلَا إِنَّ سَيِّفًا بَرْمَكِيًّا مُهَنَّدًا أَصَيْبَ بِسَيِّفِ هَاشِمِيٍّ مُهَنَّادٍ (121)
ومثله قول الشاعر أبي تمام في رثاء أبي نصر بن محمد بن حميد الطائي (من الطويل) :

وَمَا كُنْتُ إِلَّا السَّيْفَ لَاقِيَ صَّارِيَةً فَقَطَّعَهَا تُنْمَ انْتَنَى فَتَقَطَّعَا (122)
ومن أدوات القتال الأخرى الرمح و القوس والسهم والدرع ، استعان بها شعراء الحماسة الشجرية في تشكيل عاطفة الفخر والحماسة للدلالة على قوتهم وعنفهم وجبروتهم .

1. الرمح

يعد الرمح من أقدم آلات الحرب التي استعملها العربي في الهجوم ، وأعطاه أهمية كبيرة تكاد تنافس أهمية السيف في حياته وحروبه ، فجاء حضورها في الشعر مكثفاً لبيان أهميتها ، لذلك أكثر الشعراء من ذكرها سواء بلفظها مباشرة أو بأنواعها وصفاتها ، وأماكن صنعها ، فقد صور شعراء الحماسة الشجرية الرمح بأحسن الصور وأدقها ، وذكروا فضله و دوره الكبير في حسم المعارك وإحراز النصر ، ومن أهم أسماء وصفات الرمح التي وردت في شعر شعراء الحماسة الشجرية

أ- الأسمر : وهو ما كان نحيفاً دقيقاً (123) ومن ذلك قول الشاعر زيد الخيب بن مهلهل الطائي (من الطويل):

وَأَسْمَرَ مَرْبُوعاً يَزِي مَا أَرِيئَهُ بَصِيرًا إِذَا أَشْرَعْتَهُ بِالْمَقَاتِلِ (124)
فالأسمر المربوع الرمح ما بين الطول والقصر ، يسدده الفارس تجاه ضحيته ، فهو رمح نافذ لدقته وقوته ، استعان به الشاعر في حربه فكان له نعم المعين على تحقيق النصر وإحراز الفوز ، حيث أضفى عليه الشاعر صفة الإنسانية فجعله يرى ويتجه نحو هدفه الذي أراه إياه صاحبه .

ومنه قول الشاعر الحارث بن عمرو بن حَرْجَةَ الْفَزَارِيُّ (من المنسرح) :

(119) القيسي ، الفروسية في الشعر الجاهلي (ص169).

(120) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص351).

(121) المرجع السابق ، ص338.

(122) المرجع نفسه ، ص339.

(123) ينظر ، الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية (ص277).

(124) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص68).

سائل عَقْلًا عَنَّا وإخوتها
 وألوا وأزماحًا حقا بئهم
 سُمُرٌ يُصَيِّحُنْ فِي الْمُتُونِ كَمَا
 بِنِي نُمَيْرٍ فَمِ يَهُمُ الْخَبْرُ
 نُكْرَهُمْ فَا يَهُمُ وَتَأْطُرُ
 هَاجَ دَجَاجًا بِيْثَرِ السَّحَرِ (125)

ب- الخطي والرديني : والخطي نسبة إلى أرض الخط يُنسب إليها الرماح الخطية ، والرديني نسبة إلى امرأة كانت تصنع الرماح يقال لها ردينة (126) ، ومنه قول الشاعر (من الطويل) :

مَعَاقِلُنَا فِي الْحَرْبِ جُرْدٌ كَأَنَّهَا
 وَسُمُرٌ مِّنَ الْخَطِيِّ ذَاتُ أَسِنَّةٍ
 إِذَا مَا انْتَضَيْنَاهَا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ
 أَجَادِلٌ فِي جَوِّ السَّمَاءِ كَوَاسِرُ
 وَبَيْضٌ كَأَمْثَالِ الْبُرُوقِ بَوَاطِرُ
 رَأَيْتَ لَهَا هَامَ الْعِدَا تَتَطَايَرُ (127)

استعان الشاعر في تصوير عاطفته الجياشة بالفخر والحماسة بالرماح الخطية السمر النافذة الدقيقة الحادة ، حيث جاء استعمال هذا اللفظ ونسبته إلى الأرض التي صُنِعَ فيها لما لهذه الرماح من أثر كبير في حسم المعركة .

ومنه قول الشاعر نُفَيْعُ بْنُ صَفَّارٍ (من الطويل) :

أَبَا مَالِكٍ لَا يُدْرِكُ الْوِثْرُ بِالْخَنَاءِ
 وَلَكِنْ بَأْطُرِ الرَّدِيِّيَّةِ السُّمُرِ (128)

فمن أسباب إدراك الثأر استعمال الرماح الردينية ، لما لها من أثر كبير بالعدو ، وجاء استعمال هذا النوع بالذات للدلالة على جودتها وامتلاك الشاعر لها .

ت- القنا : وهي من الألفاظ الدالة على أجزاء الرماح وهو الجزء النباتي منه ، والسنان هو مقدمة الرمح وهو مصنوع من المعدن (129) ، وقد ورد لفظ القنا بكثرة في شعر شعراء الحماسة الشجرية ومن ذلك قول الشاعر عامر بن الطفيل (من الطويل) :

صَدَمْنَاهُمْ حَتَّى إِذَا مَا الْخَيْلُ عَرَدَتْ
 فِرَارًا مَنَحْنَاهُمْ بِصُمِّ الْقَنَاءِ نَحْسًا (130)

فقد ابرز الشاعر وظيفة القنا في القتال وهي استعماله للبعيد الهارب المولي من المعركة ، وفي قوله بصم القنا إشارة إلى الجزء المعدني الصلب الموجود في المقدمة .

وقد استعان شعراء الحماسة الشجرية بلفظ القنا في تشكيل فلسفة الموت والحياة وتحقيق الأهداف كما في قول الشاعر عُبيد الله بن الحر الجعفي (من الطويل) :

(125) المرجع السابق ، ص170.

(126) ينظر ، الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية (ص278).

(127) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص5).

(128) المرجع السابق ، ص141.

(129) ينظر ، الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية (ص278).

(130) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص16).

يَخُوْفُنِي بِالْقَتْلِ قَوْمِي وَإِنَّمَا
لَعَلَّ الْقَنَا تُذْنِي بِأَطْرَافِهَا الْغَنَى
إِذَا كُنْتَ ذَا رُمُوحٍ وَسَيْفٍ مَصْمَمٌ
فقد جعل الشاعر القنا سببا في الغنى واكتساب المال ، في غزواته ومعاركه ، وفي هذا دلالة على أهميتها في المعركة .
ومنه قول الشاعر (من الطويل) :

وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمُتَمَّعَ بِالْقَنَا
ث- الثِّقَافُ : وهي أداة من حديد تستخدم في صنع وتقويم الرماح ، وقد استعملها الشعراء بمعنى الرمح ، فقامت مقامه في الدلالة
ومنه قول الشاعر خدّاش بن زهير العامري (من مجزوء الكامل) :

إِنَّمَا إِذَا عَضَّ الثَّقَا
فُ بِرَأْسِ صَغْدَتِنَا لَوَيْنَا (133)
فقد استعمل الشاعر كلمة الثِّقَاف بمعنى الرماح لأنها من ذات الحقل الدلالي فيها تُسَوِي الرماح ، فإذا أصابت الرماح قوم هذا
الشاعر كان الرفض لما يُطالِبون به . ومنه قول الشاعر خُفَّافُ بن ثُدْبَةَ (من الوافر) :

أَعْبَأْسُ بِنُّ مِرْدَاسُ أَلْمَا
فَتَغَلَّمُ أَنْ عُوْدِي قَد تَغَيَّرَا
عَلَى غَمَزِ الْمُقَمِّ وَالثَّقَافِ (134)
عَلَى غَمَزِ الْمُقَمِّ وَالثَّقَافِ (134)
2. الدرع :

وهي من أهم أدوات القتال الدفاعية ، حظيت باهتمام الشعراء فأكثرُوا ذكرها في قصائدهم سواء بأسمائها أو صفاتها ومن
الألفاظ الواردة للدلالة على الدرع في حماسة ابن الشجري (الدرع ، الزعف ، السوابغ ، الدلاص ، الماضي ، السريال الأثْلَّة ، إلى
غير ذلك من الألفاظ) ، ومما ورد في أشعار شعراء حماسة ابن الشجري قول الشاعر (من الكامل) :

وَلَقَدْ صَبَحْتُ بِنِي كِنَانَةَ غَارَةً
فِيهَا الدَّرُوعُ وَكُلُّ أَبْيَضٍ مَخْدَمٌ (135)
ومثله قول الشاعر (من الخفيف):

يَا سُمَيْرَاءُ قَرِيبِي الْيَوْمَ دِرْعِي
ومنه قول الشاعر خدّاش بن زهير العامري (من الطويل) :

وَأَلْبَسُ الْيَوْمَ الدَّرُوعَ رُغْفَاءً سَوَابِغاً
مُضَاعَفَةً بَيْضاً لَهَا حُتُّكَ تَجْرِي (137)
فألزغ ، و السوابغ ، و البيض كلها من أسماء الدرع استعان بها الشاعر لتوسيع دلالة قوتهم وجبروتهم واكتمال عدتهم في
الحروب .

(131) المرجع السابق ، ص106.

(132) المرجع نفسه ، ص183.

(133) المرجع نفسه ، ص117.

(134) المرجع نفسه ، ص130.

(135) المرجع نفسه ، ص187.

(136) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص209).

(137) المرجع السابق ، ص114.

ومنه قول الشاعر الأغلب العجلي (من الرجز) :

نَحْنُ بَنِي عَجَلٍ إِذَا أَحْمَرَ الْخَدَقُ وَلَبَسَ الْأَبْطَالَ مَا ذِي الْخَلْقِ (138)
الماذية هي الدرع البيضاء التي يلبسها الأبطال يوم الحرب ، وهي علامة مميزة لهم ، حيث يلبسها أشجع الفرسان فيكونوا ظاهرين للعيان .

ومنه قول الشاعر عمرو بن معد يكرب (من الوافر) :

تَمَّ نَانِي وَسَبَّابِعِي دِلَاصٌ كَأَنَّ قَتِيرَهَا خَدَقُ الْجَرَادِ (139)
ومن الألفاظ المتعلقة بهذا الحقل الدلالي كلمة (السريال) حيث اعتد بها الشعراء كونها توفر الحماية التامة لهم فتغطي معظم البدن فأكثرها من ذكرها كما في قول الشاعر أنس بن مُدْرِك (من البسيط):

تَحْتِي الْأَعْرُ وَسِرِّيَالِي مُضَاعَفَةٌ تَغَشَى الْبِنَانَ وَسِيفِي صَارِمٌ ذَكْرُ (140)
فقد جاء لفظ السريال يفيد تغطية عموم البدن حتى الأنامل قد غطاها ووفر لها الحماية التامة .
ومثله قول الشاعر يزيد بن حَبْنَاء التميمي (من الطويل) :

أَبِيئْتُ وَسِرِّيَالِي دِلَاصٌ حَصِينَةٌ وَمَغْرَهَا وَالسَّيْفُ فَوْقَ الْحِيَاظِ (141)
ومما جاء من هذا الحقل الدلالي لفظ (الأثيلة) الدرع الصغيرة كما في قول الشاعر عمرو بن معد يكرب (من الكامل) :
وَمُغِيرَةٌ شَفْوَاءَ ذَاتِ أَشْسَالَةٍ فِيهَا الْفَوَارِسُ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعٌ (142)
المبحث الثالث : حقل ألفاظ المرأة

حظيت المرأة بحضور كبير في خطابات شعراء الحماسة الشجرية الشعرية ، وينبع هذا الحضور المكثف من الأهمية البالغة للمرأة في حياة الشعراء ، وقد توالى ذكر ألفاظ المرأة في شعر الحماسة الشجرية صراحة باسمها ، وبكثرتها أو بالصفات التي مُنحت لها ودلت عليها ، كما استعمل الشعراء الكثير من المرادفات الأخرى للدلالة عليها وخاصة الأطلال ، والظعائن ، ويمكن تقسيم الألفاظ الواردة للدلالة على المرأة تحت محورين أساسيين سعى الشعراء من خلالهما إلى تشكيل رؤيتهم الخاصة بالمرأة ، المحور الأول الموت والفناء وما دل عليه من أطلال وهجر ورحيل وما يتعلق بهما والمحور الثاني استمرار الحياة والنوع من خلال الصور التي رسمها الشعراء للمستقبل الزاهي بحضور المرأة المحبوبة واستشراقه على أحسن ما يكون .

المحور الأول : الموت والفناء

شكلت ألفاظ الأطلال ، والظعائن ، والهجر والرحيل ، حقلاً دلالياً خاصاً بهذا المحور ، حيث تعالقت المفردات مع بعضها بعضاً ، من أجل خلق دلالة تفيض بكل معاني الألم والحزن ، المستقاة من طبيعة الموت والفناء التي أحس بها الشاعر العربي حيث مثلت الأطلال "صرخة يائسة أمام حقيقة الموت والفناء" (143) . وأمام هذه النظرة إلى طبيعة الطلل وما كان يؤديه الشعراء من مراسم أمامه ، تتبدى النظرة العميقة التي نظرها الشعراء إليه ، فقد كانت تراتيلهم أمامه ليس مجرد بكاء على أيام سعيدة انقضت ، ولا أيام لهُو لن تعود ، إنها نظرة الفناء التي أحس بها الإنسان منذ بداية الخليقة لذلك كانت هذه الوقفات

(138) المرجع نفسه ، ص 134.

(139) المرجع نفسه ، ص 39.

(140) المرجع نفسه ، ص 185.

(141) المرجع نفسه ، ص 219.

(142) المرجع نفسه ، ص 31.

(143) بكار ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (ص 218).

يستحضر بها الشاعر المرأة كأحد أهم عناصر البقاء ، ويأتي بنقيضه الموت والفناء ، لذلك عبر الشعراء من خلال لفظ المرأة على هذه الحقيقة التي ما زالت هاجسا يؤرقهم ويوقظ مكامن الحزن والأسى . لذلك لجأ الشعراء إلى استحضار الماضي وذكرياته الجميلة ، في مواجهة هذا الشعور .

ومما جاء من هذا الحقل الدال على الموت والفناء قول الشاعر بشر بن أبي خازم (من الوافر) :

تَغَيَّرَتِ الْمَنَى أَزَلُّ بِالْكَثِيرِ بِبِ وَغَيَّرَ آيَهَا نَسْنَجُ الْجَنِّ بَوْبِ
مَنَازِلُ مَنْ سُلِّمِي مُقْفَرَاتُ عَفَاهَا كَلُّ هَطَّالِ سَكُوبِ
نَأَتْ سَلْمِي فَغَيَّرَهَا التَّنَائِي وَقَدْ يَسْلُو الْمُحِبُّ عَنِ الْحَبِيبِ (144)

استعان الشاعر بكل الألفاظ الدالة على بعد المحبوبة المتعلقة بهذا المحور ، محور الموت والفناء (تَغَيَّرَتِ، غَيَّرَ، مُقْفَرَاتُ عَفَاهَا ، نَأَتْ) للتعبير عن عاطفة جياشة شكلت المرأة فيها عنصرا دالا على الموت برحيلها ونأيها ، فقد تبدل حال الديار لهذا البعد والرحيل فأصبح مقفرا كما القبور .

وقد سعى الشعراء في تشكيل خطابهم الشعري من خلال هذه النظرة إلى الدعاء على هذه الأطلال وهو ما يؤكد النظرة السابقة المفعمة بكل معاني الحزن والأسى المتشحة بالسواد والقلق من الآتي ، حيث تتمثل هذا المعنى في قول الشاعر عمرو بن معد يكرب (من الطويل) :

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الظُّلُومَ البَوَالِيَا وَقَاتِلَ ذَكَرَاكَ السِّنِينَ الخَوَالِيَا
وَقَوْلِكَ لِلشَّيْءِ الذِّي لَا تَنَالُهُ إِذَا مَا حَلَ فِي الْعَيْنِ يَا لَيْتَ ذَا لِيَا (145)

فالدعاء على الأطلال البالية ليس دعاء عليها وإنما دعاء على الأيام الجميلة الماضية التي كانت بصحبة المحبوبة التي فقدها الشاعر في السنين التي خلت ، فقد مثلت الأطلال المرأة ، ومثل غياب المرأة الموت الذي لا يحتمله الشاعر لذلك كان الدعاء على الأطلال . ومنه قول الشاعر الحسن بن هانئ (من الطويل) :

لِمَنْ طَالَ عَارِي المَحَلِّ دَفِينُ عَقَبَتْ آيُهُ إِلا خَوَالِدُ جُـوْنُ
كَمَا اقْتَرَبَتْ عِنْدَ المَبِيتِ حَمَائِمُ غَرَبَاتُ مُمِي مَا لَهْنُ وَكُـوْنُ
يَبَارُ التِّي أَمَّا جَنِي رَشَفَاتِهَا فَيَحَالُو وَأَمَّا مَسُّهَا فَيَلِينُ
وَمَا أَنْصَفَتْ أَمَّا الشُّحُوبُ فَظَاهِرُ بِوَجْهِ وَأَمَّا وَجْهَهَا فَمَضُـوْنُ (146)

لقد مثل فراق المحبوبة هاجسا كبيرا للشعراء فزهدوا في الحياة وتمنوا الموت إذا لم يكن اللقاء هو الهدف المنشود ، كما في قول الشاعر قطري بن الفجاءة المازني (من الطويل) :

لَعَمْرُكَ إِنِّي فِي الحَيَاةِ لَزَاهِدُ وَفِي العَيْشِ مَا لَمْ أَلْقُ أُمَّ حَكِيمِ (147)

فقد زهد الشاعر في حياته إذ لم يلق محبوبته ، وهو يتمني الموت على أن يكون هذا الفراق ، وهو ما يؤكد أسلوب القسم في بداية البيت .

لقد شكلت ألفاظ البعد والهجر واليبين حقا دلاليا ذا صلة وثيقة بلفظ المرأة حيث ارتبطت هذه الألفاظ بخطابات الشعراء وعواطفهم المتحدثة عن المرأة وبُعدها ، وارتباط هذا البعد بالموت ، كما في قول الشاعر (من الطويل) :

(144) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص11).

(145) المرجع السابق ، ص32.

(146) المرجع نفسه ، ص849.

(147) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص221).

خُفَاتْنَا عَلَى أَنَّهُمْ لَصَابُورُ
وَنَحْنُ عَلَى مِثْنِ الطَّرِيقِ نَسِيرُ
فَكَادَ مِنَ الْوَجْدِ الْمُبِينِ يَطِيرُ
فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ شُهُورُ؟
مِنَ الْأَرْضِ غَوْلٌ نَازِحٌ وَمَسِيرُ
أَزِيدُ اشْتِيَاقًا أَنْ يَجِيَنَّ بَعِيرُ
وَيُجْمَعُ شَمْلٌ بَعْدَهَا وَسُرُورُ (148)

فقد ارتبط فراق المرأة بالموت، وما أنجى الشاعر من هذا الموت الفجائي إلا الصبر، وتمني جمع الشمل بعد هذا الفراق .

ولا يزال تمنى رجوع الزمن الأول معلقاً بوجودان الشعراء فلم تزل الأطلال والأماكن عالقة في أذهانهم يتذكرون ما خلا لهم من أيام سعيدة فيها كما في قول الشاعر عُقَيْلُ بْنُ الْعَرْنَدَسِيِّ الْكِلَابِيِّ (من البسيط) :

وَالْحُمَّتَيْنِ سَقَاكَ اللَّهُ مَن دَارَ
مَعَ الَّذِي مَرَّ مِنْ رِيحٍ وَأَمْطَارِ
بِيضًا عَقَاتِلَ مِنْ غَوْنٍ وَأَبْكَارِ
وَلَا عَلِمَنْ لَهَا يَوْمًا بِأَسْرَارِ
عَفْوًا وَأَنْتَ عَلَيْهَا عَاتِبٌ زَارِ (149)

وإن كان منظر الأطلال وبكاءها والتأسف على ما فات منها ، ومن كان فيها ، أحد الدلالات التي تعالقت بشدة مع لفظ المرأة التي شكلت أحد عوامل الموت والغناء ، فقد كان للظاعنين والظاعنين دور كبير أيضا في تشكيل ألفاظ هذا الحقل الدلالي ، فقد دلت كلمة الظاعنين على المحبوبة المرتحلة التي لا أمل في رجوعها كما في قول الشاعر الطَّرِمَّاحِ بْنِ حَكِيمِ الطَّائِي (من الطويل) :

مِنَ الْعَيْشِ إِذْ أَهْلُ الصَّفَاءِ جَمِيعُ
سَوَاكُنْ فِي أَوْكَارِهِنَّ وَقُوعُ
وَمِثْلُ فُرَاقِ الظَّاعِنِينَ يَرُوعُ (150)

لقد وظف شعراء الحماسة الشجرية المرأة في الدلالة على الموت وتمنيه مخافة الفراق ، فتمنى الشاعر الحياة معها أو الموت معها أيضا ، فلم يعد الشعراء يستطيعون البقاء دونها حتى في الموت ، كما في قول الشاعر جميل بثينة (من الكامل) :

وَأَصْبَحَ مِنْ نَفْسِي سَقِيمًا صَاحِبُهَا
وَلَا الْمَوْتُ فِيمَا قَدْ شَجَّاهَا يُرْحُهَا
يُؤَافِقُ فِي الْمَوْتِ ضَرِيحِي ضَرِيحُهَا
إِذَا قِيلَ قَدْ سُويَ عَلَيْهَا صَفِيحُهَا (151)

فالشاعر لا يريد للفراق أن يتحقق حتى في الموت أراد أن تكون القبور متجاورة ، وهذا دليل على أهمية المرأة ، وحب الرجل إياها والتعلق بها حتى في الموت .

لقد مثلت المرأة أسباب الموت عند شعراء الحماسة الشجرية فكان بينها وفراقها أحد أهم أسباب هذا الموت وهو ما نلمسه في قول

(148) المرجع السابق ، ص550.

(149) المرجع نفسه ، ص358.

(150) المرجع نفسه ، ص531.

(151) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص505).

الشاعر (من البسيط) :

قَالَتْ وَمَدَّتْ يَدَا نَحْوِي تُودِعْنِي وحيـرةُ البين تـأبى أن أمدَّ يدا
أَمَيْتُ أَنْتِ يَا هَذَا؟ فَقَلْتُ لَهَا: مَنْ لَمْ يَمُتْ يَوْمَ بَيْنٍ لَمْ يَمُتْ أَبَدًا (152)

فقد مثلت المرأة الموت والفناء في الأبيات السابقة ، لإنسان حائر لا يعي ما يجري حوله من هول المصيبة التي تتعلق بحياته وكيونته واستمراريته ، فقرر أن الفرق يساوي الموت .

المحور الثاني : استمرار الحياة والنوع .

رغم ما صورته الشعراء في الصورة السابقة للمرأة من دلالات موت وفناء وانتهاء الحياة ، إلا أنهم رسموا صورة أخرى مقابلة للصورة السابقة ، فمنحوا المرأة دلالات الخصب والنماء ، والحياة والخلود فقد كانت المرأة بمثابة العامل الأهم لاستشراف المستقبل المزهر إذ لا حياة بدونها ، لقد رسم الشعراء صورة المرأة من خلال ما تناولوه من أوصاف في خطاباتهم الشعرية ، فوصفوها بالسحابة وما تحمله من دلالات الخصب والنماء والحياة المتجددة كما في قول الشاعر جرير (من البسيط) :

مَا اسْتَوْصَفَ النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ يَرُوقُهُمْ إِلَّا رَأَوْا أُمَّ عَمْرٍو فَوَقَّ مَا وَصَفُوا
كَأَنَّهَا مُزْنَةٌ غَرَاءٌ، رَائِحَةٌ أَوْ ذُرَّةٌ لَا يُوَارِي ضَوْءَهَا الصَّذْفُ (153)

فقد وصف الشاعر أم عمرو بأنها مزنة تحمل كل أسباب الحياة ، كما منح هذه الحياة معاني الإضاءة والإشراق من خلال تشبيهها بالدرة النفيسة .

ومنه قول الأخطل (من الطويل) :

أَسِنَّةٌ مَجْرَى الدَّمْعِ خَفَاقَةٌ الحَشَا مِنَ الهَيْفِ مِزَاقُ التَّرَائِبِ والنَّحْر
مِنَ الْجَازِيَاتِ الحُورِ مَطْلَبُ سِرِّهَا كَبِيضِ الأَنْوَقِ المُسْتَكْنَةِ فِي الوَكْر
وَإِنِّي وَإِيَّاهَا إِذَا مَا لَقِيْتُهَا لِكَالْمَاءِ مِنْ صَوْبِ السَّحَابَةِ وَالحَمْر (154)

لقد منحت المرأة الشاعر كل أسباب البقاء ، فبقائها حياته ، وبقرنها أنسه ، كما في قول الشاعر جميل (من الطويل) :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَذْبَةَ الرِّيقِ أَنَّنِي أَظَلُّ إِذَا لَمْ أُسْقِ رَيْقِكَ صَادِيًا (155)

فالصادي شديد العطش ، المعرض للموت والهلاك ، ولا منجي من هذا الموت المحتم إلا ريق المحبوبة الذي يذهب الظمأ ، فالمحبوبة كالماء للعطشان ، تمنح الحياة وتؤكد معاني الخصب والنماء والاستمرار .

لقد مثلت المرأة معاني الحياة المتمثلة بالماء النازل من السماء ، حتى وإن كان الوقت صيفاً كما في قول الشاعر الحسين بن مطير الأسدي (من الطويل):

وَفِي الحَيِّ غَرَاءِ الجَبِينِ كَأَنَّهَا عَمَامَةٌ صَافِيَةٌ مُسْتَهْلٌ صَبِيْرُهَا (156)
الخاتمة

سعى هذا البحث لاستقصاء دلالات الألفاظ التي شكّلت حقولا دلالية بارزة في الحماسة الشجرية ، حيث اقتصر هذا البحث على ثلاثة حقول دلالية كبيرة ، كان لها دور كبير في تشكيل الخطابات الشعرية عند شعراء الحماسة الشجرية ، حقل

(152) المرجع السابق ، ص636.

(153) المرجع نفسه ، ص658.

(154) المرجع نفسه ، ص509.

(155) المرجع نفسه ، ص504.

(156) ابن الشجري ، الحماسة الشجرية (ص562).

الطبيعة ، وحقل أدوات القتال ، وحقل المرأة ، حيث تم دراسة هذه الحقول وفقاً للمنهج الأسلوبي في استقصاء الدلالات ، وبيان صور الانزياح التي حدثت لألفاظ هذه الحقول ، وكيف عمد الشعراء إلى توسيع دلالات هذه الألفاظ واستخدامها في تشكيل عواطفهم وتجاريهم الشعرية .

النتائج

1. ثراء المعجم الشعري عند شعراء الحماسة الشجرية مما شكل حقولاً دلالية بارزة في خطابهم الشعري .
2. تنوع الحقول الدلالية وبروزها كظاهرة أسلوبية ، سعى الشعراء من خلالها إلى توسيع الدلالات المرتبطة بالخطاب الشعري ، حسب العاطفة ، والغرض الشعري .
3. توظيف شعراء الحماسة الشجرية ألفاظ الطبيعة بشقيها المتحركة ، والصامتة ، ينم عن معرفة سابقة وخبرة في دور هذه الألفاظ وما تضيفه على التجربة الشعورية من دلالات ، تبين خفايا نفس المبدع ، وتدعو المتلقي للتماهي معه في تجربته الشعورية .
4. ورود ألفاظ الحرب ، وخاصة الأدوات القتالية المستعملة فيها ، يثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، معرفة العربي بكافة أنواع هذه الأسلحة ، وكيفية استخدامها، وبراعته في تصوير دورها أثناء المعركة ، ومكانة هذه الأدوات في نفس الشاعر .
5. الحضور المتميز لألفاظ المرأة على صفحات الحماسة الشجرية ، ينم عن فكر عربي عميق يربط هذا اللفظ تارة بالموت والفناء ، وتارة أخرى بالحياة والاستمرار والخصب والنماء .

التوصيات

1. الاهتمام بدراسة النصوص الشعرية القديمة وفق المنهج الأسلوبي ، لما له من دور كبير في استجلاء دلالات جديدة لم تكن لتظهر عند استعمال المناهج القديمة .
2. دراسة باقي الحقول الدلالية الموجودة في حماسة ابن الشجري ، حيث أنه لا يتسع المقام لدراستها وعرضها في هذا المقام الضيق .
3. توجيه الباحثين لدراسة النصوص الشعرية القديمة ، بالمناهج الحديثة ، كالبنوي ، والأسلوبي ، والتفكيكي ، و السيميائي ، لاستكشاف النتائج المترتبة عن استعمال كل منهج .

المصادر والمراجع

- أحمد ، مظاهر بشير علي . (2008م) . *القيم الأدبية والشعرية في حماسة ابن الشجري* (رسالة ماجستير غير منشورة) . جامعة الخرطوم ، السودان .
- أرسطو . (د.ت) . *فن الشعر* . ترجمة : إبراهيم حمادة . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية .
- بكار ، يوسف حسين . (1982م) *بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث* . ط2 . بيروت : دار الأندلس .
- التنجي ، محمد . (1993م) . *المعجم المفصل في الأدب* . ط1 . بيروت : دار الكتب العلمية .
- الثعالبي . (2000م) . *فقه اللغة وسر العربية* . تحقيق : ياسين الأيوبي . ط2 . بيروت : المكتبة العصرية .
- الثعالبي . (د.ت) . *ثمار القلوب في المضاف والمنسوب* . تحقيق : محمد أبو الفضل . (د.ط) . القاهرة : دار المعارف .

- الجاحظ. (1965م). *الحيوان*. تحقيق: عبد السلام هارو. ط2. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- الجيار، شريف سعد. (2008م). *شعر إبراهيم ناجي دراسة أسلوبية بنائية*. ط1. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- حسنين، أحمد طاهر. (1983م). *المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم*. مجلة فصول، المجلد 3. العدد 2. (29-46).
- حمداوي، جميل. (2015م). *اتجاهات الأسلوبية*. ط1. (د.م): (د.ن).
- الحموي، ياقوت. (1993م). *معجم الأديباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب*. تحقيق: إحسان عباس. ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي .
- حيدر، فريد عوض. (1999م). *علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية*. ط2. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية .
- ابن خلكان، شمس الدين. (1977م). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق: إحسان عباس. (د.ط). بيروت: دار صادر
- خليل، إبراهيم. (2010م). *مدخل إلى علم اللغة*. ط1، عمان: دار المسيرة .
- الرشود، خيرات حمد. (2011م). *شعر المرقشيين دراسة أسلوبية*. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة آل البيت. الأردن.
- الزركلي، خير الدين. (2002م). *الأعلام*. ط15. بيروت: دار العلم للملايين.
- سلدن، رمان. (1998م). *النظرية الأدبية المعاصرة*. ترجمة: جابر عصفور. (د.ط). القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع .
- السيوطي، جلال الدين. (1979م). *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط2. دمشق: دار الفكر .
- ابن الشجري، هبة الله. (1970م). *الحماسة الشجرية*. تحقيق: عبد المعين الملوحي وآخرون. (د.ط). دمشق: منشورات وزارة الثقافة .
- ابن الشيخ، جمال الدين. (1996م). *الشعرية العربية*. ترجمة: مبارك حنون وآخرين. ط1. المغرب: دار توبيقال للنشر .
- الطيب، عبد الله. (1977م). *الطبيعة عند المتنبي*. (د.ط). العراق: وزارة الإعلام .
- العبادلة، عثمان محمد. (1996م). *قراءات في المكتبة العربية*. ط3. القاهرة: دار النهضة العربية .
- عبد المطلب، محمد. (1994م). *البلاغة والأسلوبية*. ط1. القاهرة: دار نوبار للطباعة.
- عزوز، أحمد. (2002م). *أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية*. (د.ط). دمشق: منشورات اتحاد الكتاب .
- أبو العدوس، يوسف. (2010م). *الأسلوبية الرؤية التطبيقية*. ط2. عمان: دار المسيرة.
- أبو علي، نبيل. (2021م). *البحث الأدبي*. ط3. غزة: مكتبة المركز الدولي .
- عمر، أحمد مختار. (1998م). *علم الدلالة*. ط5. القاهرة: عالم الكتب .
- عياد، شكري محمد. (1988م). *اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب*. ط1. (د.م): انترناشيونال برس .
- فضل، صلاح. (1998م). *نظرية البنائية في النقد الأدبي*. ط1. القاهرة: دار الشروق.
- القيسي، نوري حمودي. (1970م). *الطبيعة في العصر الجاهلي*. ط1. بيروت: دار الإرشاد .
- القيسي، نوري حمودي. (1964م). *الفروسية في الشعر الجاهلي*. ط1. بغداد: مكتبة النهضة .
- كريستيفا، جوليا. (1997م). *علم النص*. ترجمة: فريد الزاهي. ط2. المغرب: دار توبيقال للنشر .
- كوين، جون. (1990م). *بناء لغة الشعر*. ترجمة: أحمد درويش. (د.ط). مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- لاينز، جون. (1987م). *اللغة والمعنى والسياق*. ترجمة: عباس صادق الوهاب. العراق: دار الشؤون الثقافية العامة .

- محمد ، حمد سعد .(2002م) . في علم الدلالة . ط1 . القاهرة : مكتبة الزهراء .
- المسدي ، عبد السلام .(1982م) . الأسلوبية والأسلوب . ط3 . ليبيا : الدار العربية للكتاب .
- مصلوح ، سعد . (1993م) . في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية . ط1 . مصر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .
- مفتاح ، محمد.(1992م) . تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص . ط3 . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي .
- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم .(1999م) . لسان العرب . ط3 . بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- نصار ، حسين .(1988م) . المعجم العربي نشأته وتطوره . ط4 . مصر : دار مصر للطباعة .
- ناظم ، حسن . (1994م) . مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم . ط1 . بيروت : المركز الثقافي العربي
- نهر ، هادي .(2002م) . الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها . ط1 . عمان : دار الفكر .
- نوفل ، سيد . (1945م) . شعر الطبيعة في الأدب العربي .(د.ط) . القاهرة : مطبعة مصر .
- ياكسون ، رومان .(1988م) . قضايا الشعرية . ترجمة : محمد الولي وآخرون . ط1 . المغرب : دار توبيقال للنشر .